

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

حِينَ يَقْرَعُ الْمُصِيرُ أَبْوَابَ الْغَفْلَةِ
وَتُنْكَشَفُ أَوْزَانُ الْأَرْوَاحِ

تأليف: رَدَادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

حِينَ يَقْرَعُ الْمَصِيرُ أَبْوَابَ الْغَفْلَةِ وَتَنكَشِفُ أَوْزَانُ
الْأَرْوَاحِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

السُّورَةُ الَّتِي تَهْدِمُ سُكُونَ الْعَالَمِ لِتَوْفِظَ سُكُونَ الْقَلْبِ

ليست سورة القارعة حديثاً عن حادثة تقع في آخر الزمان فحسب، وإنما هي قرعة تهبط من سماء الوحي على أبواب الغفلة في الإنسان؛ توقظه من وهم الاستقرار، وتزعزع عن العالم قناع الدوام، وتضعه أمام الحقيقة التي يفر منها كلما استغرق في يومه، وتغيب عنه كلما ازدحمت حوله الأشياء: أن هذا الوجود الذي يبدو راسخاً ليس هو الصورة النهائية للوجود، وأن هذا الإنسان الذي يمضي فوق الأرض واثق الخطوة، ممتلئاً بمشروعاته ومخاصماته ومطامعه، سيأتي عليه يوم لا يملك فيه من أمره شيئاً، وتبعثر فيه الجماعات البشرية كالفراش المبعوث، وتنهار فيه الجبال التي كانت في الحس رمزاً للثبات، ثم لا يبقى من سلطان الدنيا ولا من زينتها ولا من ضجيجها إلا وزن العمل في ميزان الله.

إنها سورة قصيرة في عدد آياتها، لكنها واسعة في المشهد الذي تفتحه، ثقيلة في الحقيقة التي تحملها، عميقة في الأثر الذي تتركه في الوعي؛ تبدأ بكلمة واحدة لا تسمى القيامة تسمية هادئة، بل تستحضرها من خلال وقعها وصدمتها: ﴿الْقَارِعَةُ﴾، ثم تكرر السؤال عنها حتى يتسع في النفس الشعور بهولها، وبعد ذلك تنقل البصر من اضطراب الناس إلى انتقاض الجبال، ومن انهيار الهيئة الكونية إلى انكشاف القيمة الأخلاقية، ومن

الفراش المتطير والعهن المنفوش إلى الموازين الثقيلة والخفيفة، ثم تنتهي في قاع الهاوية عند نار لا يبقى وصفها الأخير مجالاً لوهم النجاة: ﴿نار حامية﴾.

وسنمضي في تدبر هذه السورة من داخل بنائها القرآني، لا بأن نفرض عليها أسئلة غريبة عن سياقها، ولا بأن نحول أخبار الغيب إلى رموز نفسية تذوب معها حقيقة القيامة، بل بأن نبدأ من اللفظ ودلالته، ومن ترتيب الآيات ونظمها، ومن حركة المشهد وانتقالاته، ثم نفتح المعنى على ما يبينه في الإنسان من وعي وموقف وبصيرة. فالقرآن لا يذكر القيامة ليملاً خيالنا بصور المستقبل وحدها، وإنما ليعيد ترتيب الحاضر كله في ضوءها؛ لأن الذي يعرف أنه سيُفقد عند الميزان لا يعود قادراً على أن ينظر إلى أفعاله كما كان ينظر إليها، والذي يؤمن بأن الجبال نفسها ستصير كالعهن المنفوش لا ينبغي أن يخدع قلبه شيء من صلابة القوة البشرية ولا من دوام السلطان.

وسنلاحظ في هذه الرحلة أن السورة تتحرك عبر ثلاثة انقلابات كبرى: انقلاب النظام الكوني حين يضطرب الناس وتنسف الجبال، وانقلاب المقاييس البشرية حين تسقط الأسماء والصور ويبقى الوزن الحقيقي للأعمال، وانقلاب المصير حين يجد الإنسان نفسه منقولاً من عالم كان يختار فيه إلى عالم لا يرى فيه إلا ثمرة ما اختار. ومن هنا لا تكون القارعة خبراً عن آخر الدنيا فحسب، بل تكون ميزاناً لفهم الدنيا نفسها؛ فما لا يثبت عند القارعة لا يستحق أن يبني عليه القلب، وما لا يثقل

في الميزان لا ينبغي أن يستنفد العمر، وما يقود إلى الهاوية لا يمكن أن يصبح خيراً لمجرد أن الناس أحبوه أو صفقوا له أو سمّوه نجاحاً.

ليست العبرة في هذا الكتاب أن نستكثر من الصور البلاغية حول القيامة، بل أن نسمح للسورة بأن تعيد بناء مفهومنا عن الإنسان والعالم والقيمة. سنقرأ كيف يصبح الناس، الذين يتنافسون اليوم على الظهور والسيطرة، كالفراش المبتوث؛ وكيف تصبح الجبال، التي يضرب بها المثل في الرسوخ، كالصوف المنفوش؛ وكيف يختفي كل ذلك الضجيج الهائل عند لحظة الميزان، فلا يبقى إلا إنسان وعمله، وثقل وخفة، وعيشة راضية أو أمّ هاوية، ثم نار حامية.

إن سورة القارعة لا تترك القلب في المنطقة الرمادية؛ إنها تقيم أمامه مصيرين، وتضع بينهما ميزاناً. ولا تسمح للإنسان أن يحتمي بصورته عن حقيقته، ولا بمكانته عن عمله، ولا بأوهامه عن وزنه. ومن هنا كانت هذه السورة، على قصرها، ثورة كاملة على ثقافة المظاهر؛ فهي تخبرنا أن القيمة ليست فيما يملأ العيون، وإنما فيما يثقل الموازين، وأن أشياء كثيرة قد تبدو عظيمة في سوق الأرض، ثم لا يكون لها عند الله وزن، وأن أعمالاً خفية قد تمر في الدنيا بلا احتفاء، ثم تأتي يوم القيامة أثقل من جبال زالت، وأبقى من حضارات انطفأت.

الفصل الأول

الْقَارِعَةُ: حِينَ يَأْتِي الْإِسْمُ مُحَمَّلًا بِصَوْتِ الْحَدِيثِ

﴿الْقَارِعَةُ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا
الْقَارِعَةُ

تبدأ السورة دون تمهيد، ودون خبر يسبق الاسم، ودون جملة تشرح للقارئ ما سيقع؛ كلمة واحدة تهبط بكل ثقلها: ﴿الْقَارِعَةُ﴾. وكأن السورة لا تريد أن تدخل إلى النفس من طريق الشرح أولاً، بل من طريق الوقع؛ فلا تقول: ستقع القيامة، ولا تقول: سيأتي يوم عظيم، وإنما تنطق باسم يحمل في حروفه معنى الصدمة والضرب الشديد الذي يقرع الشيء فيزعزع سكونه. إنها القارعة التي تقرع الأسماع بهولها، وتقرع القلوب بفزعها، وتقرع نظام العالم فتخرجه من صورته المألوفة، وتقرع الإنسان حتى تسقط عنه أوهام القوة والاكتفاء والاستقرار.

والقرع لا يكون إلا على شيء مستغلق أو غافل أو ساكن؛ كأن الإنسان قد أغلق قلبه على يومه، وأحاط نفسه بجدران العادة، واستغرق في تكرار الحياة حتى خيل إليه أن ما يراه باق، وأن ما يملكه ثابت، وأن المسافة بينه وبين المصير بعيدة. فتأتي القارعة لتطرق هذا الإغلاق بطريقة لا يستطيع تجاهلها، ولا يملك تأجيل الاستجابة لها. وما أكثر ما يقرع الله قلوب الناس في الدنيا بالمواعظ والآيات والنذر، لكنهم يخفون أصواتها

بالانشغال، أو يغطون عليها بضجيج الشهوات، أو يؤجلون الإنصات إليها إلى وقت آخر؛ حتى إذا جاءت القارعة الكبرى لم يعد ثمة وقت للتأجيل، ولم تعد القارعة خبراً يسمع، بل أصبحت عالماً يعاش.

إن الكلمة هنا لا تسمي يوم القيامة فقط، وإنما تصف أثره في الوجود كله. وهذا من قوة البيان القرآني؛ إذ قد يكون الاسم نفسه مشهداً، وقد تحمل الكلمة الواحدة صوت الحدث وحركته وهيبته. وحين يقال: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ فإن السمع يكاد يتلقى وقع القرع قبل أن يعرف تفاصيلها، وكأن وقع اللفظ يسبق بيان المعنى ليبيئ القلب لما سيأتي. فالسورة تبدأ بالصوت قبل الصورة، وبالرعدة قبل التفصيل، وبالصدمة قبل البرهان؛ لأن بعض الحقائق من الضخامة بحيث لا تكفي معها المعرفة الباردة، بل لا بد أن يستيقظ لها الوجدان قبل أن يتبع العقل مشاهدتها.

ثم يأتي السؤال: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾. وليس السؤال هنا طلباً للمعلومة مجهولة يمكن أن يحيط بها جواب عادي، وإنما هو تفخيم لأمرها، وتوسيع لمساحة الرهبة في النفس، وإشعاراً بأن الحقيقة أكبر من العبارة التي سميت بها. إنك حين تسأل عن شيء مألوف فإنك تريد تعريفه، أما حين يكرر القرآن السؤال عن أمر من أمور الغيب الكبرى فإنه ينبه العقل إلى أن ما يتجه إليه أكبر من تصوراتنا، وأن أدوات المعتادة لن تستوعب تماماً ما وراء هذا الاسم.

﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾؛ ما هذه التي إذا جاءت انطفأت معها كل المسائل التي ملأت حياة البشر؟ ما هذه التي تهاوى أمامها الدول والأسواق والجيوش والحدود والأسماء؟ ما هذه التي لا يبقى عند وقوعها غنى مشغول بغناه، ولا حاكم مأخوذ بسلطانه، ولا مظلوم مستغرق في مظلمته، لأن المشهد كله قد انتقل من تاريخ البشر إلى حكم الله؟ ما هذه التي تقرر العالم قرعة أخيرة، فينكشف أن عمر الحضارة، مهما امتد، كان لحظة قصيرة قبل استيقاظ الوجود على يوم الحساب؟

غير أن السؤال الثاني يأتي أشد وأعمق: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾. هنا ينتقل الخطاب من السؤال عن القارعة إلى السؤال عن حدود إدراك الإنسان لها. كأن الآية تقول: وأي شيء بلغ بإدراكك حتى يحيط بحقيقة هذا اليوم؟ لقد عرف الإنسان صوراً من الخوف، وشهد الحروب والزلازل والانهيارات، ورأى المدن تهدم والجبال تتصدع والجموع تفرع، لكنه لم يشهد يوماً ينهار فيه النظام الكوني كله، ولا يوماً تخرج فيه البشرية كلها دفعة واحدة إلى أرض الحساب، ولا لحظة تجرد فيها الأعمال من غطاءها الزمني لتصير أوزاناً حاضرة لا يستطيع صاحبها إنكارها.

إن معرفتنا بالقارعة معرفة خبرية صادقة مصدرها الوحي، لكنها ليست إحاطة بتجربتها؛ فنحن نؤمن بها كما أخبر الله، ونعقل من معانيها ما دل عليه القرآن، لكن حقيقة هولها فوق ما تحتزنها الخيلة البشرية من صور. ولعل هذا من أسرار التعبير: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾؛ فالإنسان قد يسمع الاسم، لكنه لا يدرك المسمى بكامله، وقد يقرأ الآية، لكنه لا يعيش الآن ثقل الساعة التي تصفها. وبين معرفة الكلمة ومعاينة الحقيقة مسافة لا يردمها إلا وقوع الحدث.

وتكرار لفظ القارعة ثلاث مرات في ثلاث آيات قصيرة ليس تكراراً لفظياً مجرداً، بل هو تصعيد متتابع للمعنى: في الأولى إعلان الاسم، وفي الثانية تفخيم المسمى، وفي الثالثة كشف قصور الإدراك البشري أمام هولها. إنها ثلاث قرعات لغوية متتابعة: الأولى تقرر السمع، والثانية تقرر السؤال، والثالثة تقرر حدود الوعي. وفي كل مرة تعود الكلمة أثقل مما كانت؛ لأنها لا تعود مجرد اسم، بل تحمل معها ما أثاره السؤال السابق من رهبة وانتظار.

وهذا البناء يعلمنا أن الاعتقاد على ألفاظ الآخرة خطر من أخطار القراءة؛ فقد نكرر على اللسان كلمات القيامة والحساب والميزان والنار حتى تفقد في النفس رجفتها، لا لأنها ضعفت في حقيقتها، بل لأن القلب قسا من كثرة المرور الذي لا يصحبه حضور. ولذلك يعيد القرآن إلينا الكلمة، ثم يسألنا عنها، ثم يواجهنا بعجز إدراكنا؛ ليحررنا من وهم أننا أحطنا بالحقيقة لمجرد أننا حفظنا اسمها. فليس كل من نطق بالقارعة قد

استيقظ لها، ولا كل من قرأ عن الميزان قد وزن حياته، ولا كل من آمن بالآخرة إيماناً مجملًا قد جعلها مركزاً يضبط اختياراته.

القارعة، بهذا المعنى، ليست مجرد موعد في آخر التاريخ، بل مبدأ يقرع الإنسان في كل لحظة يريد فيها أن يخلد إلى الأرض. إنها السؤال الذي يجب أن يدخل على قراراته: ماذا يبقى من هذا عند القارعة؟ ما وزن هذا الموقف إذا سقطت الزينة وبقي العمل؟ هل ما أحرص عليه اليوم قادر على أن يحملني غداً؟ هل خصوماتي وأطماعي ومخاوفِي متناسبة مع حقيقة أنني مقبل على يوم تصير فيه الجبال عنها منفوشاً؟

إن الإيمان بالقارعة لا يدفع الإنسان إلى إهمال الدنيا، وإنما ينقذه من عبوديتها؛ فهو يعمل فيها، ويبني، ويزرع، ويصلح، لكنه لا يمنحها حق تقرير قيمته النهائية. يعرف أن الخسارة التي يتجنبها الناس قد تكون نجاة إذا حفظ ضميره، وأن المكسب الذي يتسابقون إليه قد يكون سقوطاً إذا خفف ميزانه، وأن الموقف الصادق الذي لا تصفق له الجماهير قد يكون أثقل عند الله من شهرة ملأت الأرض ثم انطفأت. فالآخرة لا تلغي الحياة، بل تصحح أوزانها، والقارعة لا تسلب الإنسان فاعليته، بل تحرره من أن ينفق عمره في أشياء ستطير يوماً كالفراش.

وإذا كان العالم يعيش الآن في سكون ظاهري، فإن هذا السكون ليس دليلاً على الدوام؛ فالأرض التي تحمل خطانا محفوظة بأمر الله، والجبال التي تثبت في الأفق قائمة بإذنه، والبشر الذين ينتشرون في مدنها وأسواقهم مضبوطون بنظام

قَدَّرَهُ اللهُ. فإذا جاءت القارعة ارتفع الإذن ببقاء الصورة القديمة، وانكشف أن الثبات لم يكن صفةً ذاتيةً للأشياء، وإنما كان عطاءً مؤقتاً من الله. وهنا ينهار غرور الإنسان من أساسه؛ لأنه يكتشف أن العالم الذي ظنه ملكاً له لم يكن قائماً به، وأن النظام الذي اعتمد عليه لم يكن مستقلاً عن خالقه لحظة واحدة.

وهكذا تضعنا الآيات الثلاث الأولى أمام الباب الكبير للسورة: إن القيامة أعظم من أن تدخل القلب دخول معلومة عابرة؛ إنها تحتاج إلى قرع متكرر حتى يستيقظ الإنسان من التخدير الذي تصنعه المألوفات. ومن لم توقظه القارعة وهي خبر في القرآن، فسيستيقظ عليها حين تصبح واقعاً، غير أن الاستيقاظ الأول يفتح باب العمل، أما الاستيقاظ الثاني فلا يفتح إلا باب الجزاء.

ولذلك كان من رحمة الله أن قرع أسماعنا بالوحي قبل أن يقرع العالم بالقيامة، وأن وصف لنا المصير ونحن لا نزال قادرين على تغيير الطريق، وأن جعل القارعة المقروءة إنذاراً ينقذنا من القارعة الواقعة. فما دام الإنسان يسمع قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿﴾ وهو حي، فإن باب النجاة لم يغلق، والميزان لم يحسم، والعمر الباقي - وإن قل - يمكن أن يمتلئ بما يثقل عند الله.

وهنا، بعد أن امتلأ القلب بوقع الاسم والأسئلة، تفتح السورة الستار عن أول مشاهد ذلك اليوم: بشرية فقدت نظامها فصارت كالفراش المبثوث، وجبال فقدت صلابتها فصارت

كالعهن المنفوش؛ وكأن القارعة لا تكتفي بأن توقظ الإنسان،
بل تهدم أمام عينيه صورتين كان يظنهما ثابتتين: صورة الجماعة
البشرية المنظمة، وصورة الجبل الراسخ الذي لا يتحرك.

الفصل الثاني

حِينَ يَفْقِدُ الْإِنْسَانُ اتِّجَاهَهُ وَتَفْقِدُ الْجِبَالُ ثِقْلَهَا

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾
وتكون الجبال كالعهن المنفوش

بعد أن قرعت السورة السمع باسم القيامة، ووسّعت في القلب رهبتها بالسؤال المتكرر: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ وما أدراك ما القارعة؟، لم تقدم تعريفا نظريا لذلك اليوم، وإنما فتحت أمام البصر مشهدا من آثاره؛ لأن بعض الحقائق لا تعرف بالتعريف بقدر ما تعرف بما تحدثه حين تقع. وما القارعة؟ إنها اليوم الذي يتغير فيه حال الناس، وتغير فيه حال الجبال، ويصيب الاضطراب أكثر الموجودات حركة وأشدّها ثباتا، فيفقد الناس انتظامهم، وتفقد الجبال تماسكها، ويتحول العالم من نظام مألوف إلى مشهد لا يشبه شيئا مما عرفه الإنسان.

تبدأ الآية بالناس: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾. والناس في الدنيا جماعات منظمة، وشعوب مجتمعة، ودول ذات حدود، وجيوش ذات صفوف، ومدن ذات طرق، ومؤسسات ذات مراتب، وأفراد يعرف كل منهم موقعه واسمه ووجهته. تنتظم حياتهم بالمواعيد والقوانين والمصالح، ويشعرون أن تجمعهم مصدر قوتهم، وأن التنظيم الذي أقاموه قادر على حمايتهم من الفوضى. لكن القارعة إذا جاءت نزعت عن

البشرية صورتها المرتبة، وأخرجتها من مواقعها، وكسرت انتظامها، فإذا هذه الجموع التي بدت متماسكةً قروناً طويلة تصبح كالفراس المبعوث.

والفراس مخلوقات صغيرة ضعيفة، تتحرك في اتجاهات متفرقة، وتندافع حول الضوء دون نظام ثابت، فلا تقوى الواحدة منها على ضبط حركتها، ولا تستطيع جماعتها أن تنظم في مسار واحد. واختيار الفرّاش هنا بالغ الدقة؛ لأن السورة لا تصف كثرة الناس وحدها، وإنما تصف اضطرابهم وضعفهم وتفرق وجهاتهم وإنسلاخهم من النظام الذي كانوا يعيشون داخله. فليسوا صفوفاً تمضي إلى غاية معلومة، ولا جموعاً تقودها إرادة واحدة، وإنما هم في حركة هائلة لا يملكون توجيهها، قد أفرعهم الحدث الأكبر، وأخرجهم من قبورهم، وأبطل كل ترتيب سابق لحياتهم.

ثم يزداد المشهد اتساعاً بكلمة ﴿الْمَبْعُوثُ﴾؛ فالبث هو التفريق والنشر في الجهات. كأن يداً لا ترى قد أخذت هذه البشرية المتراكمة في أجيالها وقبائلها وأممها، فنثرتها فوق ساحة القيامة؛ لا تحجز بينها حدود، ولا تسترها أبنية، ولا تحميها دول، ولا تميز كبيرها من صغيرها مظاهر الدنيا التي كانت تفصل بينهم. كلهم خارجون إلى ربهم، وكلهم داخلون في رهبة واحدة، وكلهم ينتظرون حكماً لا يملكون دفعه ولا تأخيرَه.

ما أبعد المسافة بين الإنسان في الدنيا والإنسان عند القارعة! في الدنيا قد يمشي محتالاً، ويحيط نفسه بالألقاب والحراس، ويستمد ثقته من المال والمنصب والجماعة، ويتصرف كأن له في

الأرض وزناً لا يمكن تجاوزه؛ فإذا جاءت القارعة لم يعد ذلك الفرد المتضخم في عيني نفسه إلا واحداً من فراش مبثوث، لا يملك لنفسه اتجاهاً حتى يأذن الله، ولا يستطيع أن يستدعي قوة من القوى التي كانت تحيط به، ولا أن يحتجّي خلف اسم أو نسب أو راية. لقد بقي الإنسان، وسقطت عنه إضافاته كلها.

إن التشبيه القرآني هنا يهدم الوهم الذي يجعل الإنسان يستمد قيمته من حجم الكثرة التي ينتمي إليها؛ من الجماعة والقبيلة والحزب والدولة والجمهور. فالجموع التي تهتف اليوم، والجيوش التي تصطف، والجماهير التي ترفع أسماء البشر حتى تخالها فوق النقد والحساب، ستصبح يوماً فراشاً مبثوثاً. وليس معنى هذا أن الاجتماع البشري لا قيمة له، بل معناه أن الاجتماع لا يعصم أحداً من الوقوف الفردي بين يدي الله، وأن قوة الجماعة في الأرض لا تتحول تلقائياً إلى ثقل في الميزان، وأن الإنسان لا ينجو لأن الناس كانوا معه، بل ينجو لأن الحق كان معه وكان هو مع الحق.

وهنا ينكشف ضعف التقليد الأعمى؛ فالإنسان الذي يذوب في الجماعة حتى يعطل ضميره، ويستعير منها رأيه وموقفه، ويبرر انخراطاً لأن الأكثرين فعلوه، سيجد يوم القارعة أن الجماعة التي احتفى بها قد أصبحت فراشاً مبثوثاً، وأن كل نفس ستقف بما كسبت. فالآخرة تعيد الفرد إلى مسؤوليته التي حاول الهرب منها في الدنيا؛ لا تسمح له أن يقول: كنت واحداً من الناس، ولا أن يجعل كثرة السائرين في الطريق دليلاً على سلامة الطريق. يوم القارعة تفرق الكثرة، ويبقى العمل.

لكن المشهد لا يقف عند اضطراب البشر؛ لأن الإنسان قد يرى نفسه ضعيفاً، ثم يرفع بصره إلى الجبال فيجد فيها ما يطمئنه إلى بقاء العالم. الجبل في الوعي البشري هو ذروة الثبات، وكلمة الرسوخ، والعلامة التي تقاوم الريح والزمن. تتغير الأجيال ويبقى الجبل، تنهار البيوت ويبقى الجبل، تمر الدول والحضارات من حوله وهو قائم في مكانه؛ حتى يصبح حضوره في النفس قريناً للدوام. وهنا تأتي الآية التالية لتخلع عن الثبات المادي قناعه:

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾

العُهنُ هو الصوف، وقيل: الصوف المصبوغ بألوان مختلفة، والمنفوش هو الذي فككت أجزأؤه وتخلخل تماسكه حتى صار خفيفاً تتقاذفه الحركة. يا له من انتقال مذهل: من جبل راسخ شديد الصلابة إلى صوف منفوش لا يملك من أمره شيئاً! ليست الجبال في ذلك اليوم صخوراً تتصدع لحسب، بل تتغير صورتها التي استقرت في حس الإنسان؛ ينسف تماسكها، وتتناثر مادتها، ويزول ثقلها، حتى تبدو كالصوف المنفوش في خفته وتفرقه واختلاط ألوانه.

إن الذي يرى الجبل اليوم لا يكاد يتصور أنه يمكن أن يصير إلى هذه الحال؛ لأن الحواس تحاكم المستقبل بما اعتادته في الحاضر؛ فيظن الإنسان أن ما كان صلباً سيبقى صلباً، وأن ما كان ثابتاً سيظل ثابتاً. لكن القيامة ليست امتداداً عادياً لقوانين الحياة المألوفة، وإنما هي تحول كوني يأذن الله به؛ فالقوة التي أمسكت الجبال في مواضعها قادرة على نسفها، والإرادة التي

منحتها تماسكها قادرة على تفكيكها، والثبات الذي رآه الإنسان فيها لم يكن استقلالاً عن الله، بل كان أثراً من آثار تقديره سبحانه.

بهذا المشهد يحرر القرآن العقل من عبادة الأسباب؛ فالسبب قائم ما أقامه الله، والقوة قوية ما أبقي الله فيها قوتها، والجبل جبل ما أذن الله لصخره أن يتماسك. وليس في الوجود شيء يملك صفاته من ذاته على وجه الاستقلال؛ كل شيء فقير إلى الله في وجوده وبقائه وحركته وسكونه. فإذا انتهى الأجل الذي حدده الله لهذه الصورة من العالم، لم تستطع الجبال أن تحتفظ بصلابتها لحظة واحدة، كما لا يستطيع الإنسان أن يحتفظ بقوته أو سلطانه أو حياته.

وإذا كانت الجبال نفسها ستتحول إلى عهن منفوش، فبأي شيء من أشياء الدنيا يحق للإنسان أن يغتر؟ أيغتر بمال قد تذهبه خسارة؟ أم بسلطة قد ينهبها قرار أو مرض أو موت؟ أم بجسد تنقله الأيام من القوة إلى الضعف؟ أم بشهرة معلقة باللسنة بشر سيكونون يوماً كالفراش المبوثر؟ إن السورة لا تطلب من الإنسان أن يحتقر نعم الله، وإنما تطلب منه ألا يضع ثقته النهائية في شيء محكوم بالزوال. فكل ما في الدنيا يمكن أن يكون نعمة إذا استعمل في طاعة الله، لكنه يصبح فتنة إذا توهّم صاحبه أنه مصدر أمان مستقل عن الله.

وفي اجتماع الناس والجبال في مشهد واحد مقابلة عميقة بين أكثر ما يتحرك في العالم وأكثر ما يثبت فيه. الناس أصحاب حركة دائمة؛ يرحلون ويبنون ويتاجرون ويتخامنون ويعمرون

الأرض. والجبال عنوان السكون والرسوخ. فإذا جاءت القارعة أصابت الحركة والسكون معاً: تحولت حركة الناس المنظمة إلى اضطراب، وتحول سكون الجبال الراسخ إلى تطاير. وكأن نظام الوجود كله قد فكك؛ فلا المتحرك بقي متجهاً، ولا الثابت بقي متماسكاً.

والآيتان تتحركان في إيقاع بصري دقيق: فراش مبعوث في الفضاء، وعهن منفوش في الهواء. أشياء كثيرة تتطاير، لكن الفرق بين المشهدين عظيم؛ فالناس أحياء مذعورون، والجبال جماد منسوف، ومع ذلك تجمعهما الخفة بعد أن كانت للناس في الدنيا هيئة الاجتماع، وللجبال هيئة الثقل. هكذا تحو القارعة الهيئتين معاً، فلا يبقى للإنسان أن يحتمي بعدد، ولا أن يستند إلى مادة.

وتنبثق من هذا التصوير حقيقة فكرية كبرى: ليس ما يبدو ثقيلًا في الدنيا ثقيلًا بالضرورة عند الله، وليس ما يبدو خفيفًا في أعين الناس خفيفًا في الميزان. الجبال التي لا يستطيع الإنسان حمل حجر عظيم منها ستصبح يوم القيامة عهداً منفوشاً، بينما كلمة صادقة قالها عبد مخلص، أو دمة خفية نزلت من خشية الله، أو موقف حق دفع صاحبه ثمنه، أو رحمة أسداها إلى ضعيف، قد تأتي يومئذ ذات ثقل عظيم. هنا تبدأ السورة في نقلنا من الثقل المادي إلى الثقل الأخلاقي؛ فالجبال تفقد أوزانها، لكن الأعمال تستعيد أوزانها الحقيقية.

وهذه من أعمق المفارقات في بناء السورة: أثقل الأشياء في عالم الحس يصير خفيفاً، وأخفى الأشياء في عالم المعنى يصير ثقيلاً. الجبل الذي يملأ الأفق يزول، والنية التي لم يرها أحد تبقى. القصر الذي ارتفع في أعين الناس ينهدم، والسجدة التي وقعت في ظلمة الليل تثبت. الجيوش التي ملأت الأرض صخباً تنفرق، وكلمة العدل التي قاومت ظلمها تظل محفوظة. أجساد البشر تصير فراشاً مبثوثاً، لكن أعمالهم تجمع ولا يتفرق منها شيء.

إن الإنسان المعاصر شديد الافتتان بما يمكن قياسه ورؤيته وعرضه؛ يثق بالأرقام، ويعظم الأجام، ويربط القيمة بالانتشار، ويرى أن الأكثر مشاهدة هو الأجدر بالبقاء، وأن صاحب الجمهور الأكبر هو الأثقل حضوراً. لكن سورة القارعة تقلب هذا المنطق من جذوره؛ فما يملأ المشهد اليوم قد يصبح عنها منقوشاً غداً، وما لا تراه الأبصار قد يكون هو الحقيقة الأثقل في الميزان. ليست القيمة فيما أحدث ضجيجاً أكبر، وإنما فيما كان أصدق وأصلح وأقرب إلى مرضاة الله.

والعجيب أن الإنسان قد ينفق عمره ليصنع لنفسه ثقلاً بين الناس، ثم لا يسأل: هل لي ثقل عند الله؟ قد يكس الألقاب والمناصب والانتصارات، ويحرص أن يكون لذكره حضور في كل مجلس، ثم ينسى الميزان الذي لا تثقله الأسماء إذا خلت من الصدق، ولا تخدعه الصورة إذا فسد الجوهر. إن سورة القارعة لا تعادي أن يكون للإنسان أثر في الدنيا، لكنها تسأله

عن مادة هذا الأثر: أهو قائم على الحق أم على الباطل؟ أهو رحمة أم استغلال؟ أهو بناء أم تضخم للذات؟ لأن الأعمال لا توزن يوم القيامة بحجم صداها بين البشر، بل بحقيقتها عند الله.

وعندما يتأمل المؤمن الجبال وهي تصير كالعهن المنفوش، يتخفف قلبه من الرهبة المفرطة للقوى الأرضية؛ لا يستهين بها، ولا يهمل سنن التعامل معها، لكنه لا يراها آلهة صغيرة تتحكم في المصير. فهما بلغت قوة الظالم فإنها دون الجبال، والجبال نفسها ستنسف. ومهما اتسع ملك المتكبر فإنه قائم فوق أرض ستبدل، وتحت سماء ستنشق، وبين جبال ستصير عهنا منفوشا. إن الإيمان بالقيامة يمنح المظلوم قدرة روحية على مقاومة سحر القوة؛ لأنه يرى نهايتها قبل أن تقع، ويزنها بميزان الأبد لا بميزان اللحظة.

كما يمنح هذا المشهد الإنسان تواضعاً وجودياً عميقاً؛ فليس هو مركز الكون، ولا سيد المصير، ولا مالك الغد. إنه عبد يعيش في عالم أمسكه الله بقدرته، وأمله فيه ليعمل، ثم ينقله منه إلى الحساب. وما أجمل أن يتحول هذا التواضع إلى رحمة؛ فمن عرف ضعفه لم يتكبر على ضعيف، ومن رأى البشرية كلها كالفراش المبثوث لم يحتقر إنساناً لفقره أو لونه أو نسبه، ومن عرف أن الجبال ستفقّد ثقلها لم يبنِ كرامته على شيء زائل.

لا تدعو السورة إلى خوف يعطل الحياة، بل إلى يقظة تحررها من التفاهة. فالذي يعرف أن كل هذه الصور ستزول لا يهدر عمره في معارك صغيرة لا تثقل ميزانه، ولا يبيع ضميره من أجل مكسب سيطير مع ما يطير، ولا يؤذي الناس ليستولي على

مكان لن يبقى. إن ذكر القارعة يختصر المسافات أمام البصيرة، ويضع النهاية داخل القرار الحاضر، فيصبح الإنسان أقدر على التمييز بين ما يستحق أن يعيش له وما لا يستحق، وبين ما يبقى وما يتطاير، وبين ثقل الحقيقة وخفة الوهم.

وتقف الآيتان بالإنسان وسط عالم فقد كل موازين الثقل المادي: الناس فراش مبثوث، والجبال عهن منفوش. فإذا يبقى بعد ذلك؟ هل يصبح الوجود كله خفيفاً بلا قيمة ولا معيار؟

هنا تأتي المفاجأة الكبرى في السورة: حين تفقد الجبال ثقلها، تظهر أوزان الأعمال؛ وحين يسقط ميزان المادة، ينصب ميزان الحقيقة؛ وحين يتناثر العالم الذي كان الإنسان يعرفه، يجتمع كل ما فعله الإنسان في حياته ولا يضيع منه شيء.

لقد انتهى زمن المظاهر، وبدأ زمن الموازين:

الفصل الثالث

حِينَ تَسْقُطُ أَوْزَانُ الْمَادَّةِ وَتُظْهِرُ أَوْزَانُ الْأَرْوَاحِ

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ فهو في عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ

حين وصفت السورة القارعة في آثارها الكونية، رأينا الناس يفقدون انتظامهم حتى يصيروا كالفراش المبعوث، ورأينا الجبال تفقد تماسكها حتى تصبح كالعهن المنفوش؛ فكأن كل ما كان يملأ عالم الإنسان من كَمَلٍ وأعداد وصور قد دخل طور الخفة والتبعثر. لكن السورة، في اللحظة التي يخف فيها أثقل ما في الأرض، تفتح الحديث عن ثقل من نوع آخر؛ ثقل لم يكن ظاهراً للأعين في الدنيا، ولم تكن المقاييس المادية قادرة على إدراك حقيقته، لكنه يصبح يوم القيامة مدار النجاة والمصير:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾

ما أعظم هذا الانتقال! الجبال تخف، والأعمال تثقل؛ المادة تنثر، والمعاني تتجسد؛ العالم الذي كان يبدو حقيقياً يفقد صورته، والأعمال التي كان الناس يستينون بها تظهر باعتبارها الحقيقة الباقية. كأن السورة تقول للإنسان: لقد كنت تخطئ في تعريف الثقل؛ كنت تظن أن الثقل هو كثرة المال، وضخامة السلطان، واتساع النفوذ، وامتلاء العيون بصورة المرء، ولكن

كل ذلك كان وزناً مؤقتاً داخل عالم مؤقت، أما الوزن الذي يقرر مصيرك فهو وزن إيمانك وعملك وصدقك وخيرك في ميزان الله.

وتبدأ الآية بحرف التفصيل: ﴿فَأَمَّا﴾؛ فبعد أن تحدثت السورة عن الناس جميعاً في صورة جماعية مضطربة: ﴿كَالْفَرَّاشِ الْمُبْثُوثِ﴾، بدأت تفصل بين مصائرهم واحداً واحداً. كانوا في المشهد الأول جمهوراً مبثوثاً، ثم أعادهم الميزان أفراداً مسؤولين: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾. عند الخروج والفرع يجتمعون في صورة واحدة، لكن عند الحساب تميز حقائقهم، وينفصل كل إنسان بعمله، ويظهر ما أخفته الجماعات والألقاب والصور.

إن الآخرة تبدأ بتسوية المظاهر ثم تنتهي بتمييز الحقائق؛ يخرج الناس جميعاً بلا زينة الدنيا، ثم تتفاوت منازلهم بما قدموا. لا يبقى الغني غنياً بماله، ولا الفقير فقيراً بقلته متاعه، ولا الحاكم حاكماً بسلطانه، ولا التابع تابعاً بموقعه؛ وإنما ينشأ التفاوت الجديد من داخل الإنسان، من حقيقة إيمانه، ومن صدق عمله، ومن أثر الخير والشر الذي تركه خلفه. وهكذا يهدم يوم القيامة الفروق الزائفة ليقيم الفروق الحقيقية.

الْمِيزَانُ الَّذِي لَا تَضِلُّهُ الصُّورُ

والميزان في الآخرة حق أخبر الله به، ولا يجوز أن يُفَرَّغَ من حقيقته الغيبية ليصبح مجرد رمز أدبي للعدل؛ فهو من حقائق اليوم الآخر التي نؤمن بها كما جاءت، وإن لم نخط بكيفيتها.

والمقصود من ذكره هنا أن الأعمال لا تذهب بعد وقوعها، ولا تتلاشى لأنها انقضت في الزمن، بل يحفظها الله، ويظهر حقائقها، ويقيم وزنها بالعدل الذي لا يظلم مثقال ذرة.

والإنسان في الدنيا يتعامل مع أعماله كأنها لحظات تمضي؛ يقول الكلمة ثم ينساها، ويجرح القلب ثم يمضي، ويظلم الضعيف ثم ينشغل بما بعده، ويؤدي الطاعة ثم ربما لا يستحضرها مرة أخرى. لكن مرور العمل من ذاكرة صاحبه لا يعني خروجه من علم الله، وانتهاء اللحظة لا يعني انتهاء أثرها. إن كل فعل يغادر الزمن ليدخل في سجل الإنسان، وكل كلمة تنتهي من الفم لتبدأ حياة أخرى في الكتاب، وكل نية خفيت عن الخلق مكشوفة للخالق الذي يعلم السر وأخفى.

ومن هنا فإن الميزان يعلن أن الكون أخلاقي في بنيته النهائية؛ ليس فضاءً عبثياً تتساوى فيه الخيانة والأمانة بعد انقضاء اللحظة، ولا مسرحاً يغادره الظالم والمظلوم إلى المصير نفسه دون فصل، ولا حياة تنتهي فيها التضحيات إلى العدم وتذوب فيها الجرائم بلا حساب. إن وراء اضطراب التاريخ عدلاً لا يضطرب، ووراء اختلاط الصُّور ميزاناً لا يختل، ووراء قدرة الإنسان على إخفاء باطنه يوماً توزن فيه الحقائق دون أن تحجبها الأقنعة.

كان الإنسان في الدنيا يستطيع أن يصنع لصنيعه اسماً جميلاً، وأن يضع حول خطيئته خطاباً براقاً، وأن يحول طمعه إلى مصلحة عامة في لغة الناس، وأن يسمي الجبن حكمةً، والخيانة مرونةً، والظلم حزمًا، والنفاق سياسةً، والاستعلاء قيادة. لكن

الأسماء التي يصنعها الإنسان لا تغير أوزان الأشياء عند الله؛ فالميزان لا يزن العناوين التي رفعناها فوق أعمالنا، وإنما يزن حقائق الأعمال كما علمها الله، بما انطوت عليه من نيات، وما وافقت فيه من الحق، وما تركته من آثار.

إنها محكمة لا تستطيع اللغة المخادعة تضليلها؛ لأن الذي يحكم فيها يعلم ما كان قبل أن يتحول إلى عبارة، ويعلم الدافع الذي أخفاه أفعال، ويعلم الضعف الذي استغله، والحق الذي عرفه ثم تجاوزه، والدمعة التي سترها، والرحمة التي لم يطلع عليها أحد، والمقاومة الداخلية التي خاضها ليبقى مستقيماً. ولذلك يكون الميزان رحمة للمخلصين الذين لم يعرف الناس أقدارهم، كما يكون عدلاً في حق المنافقين الذين صنعوا لأنفسهم أقداراً لا يملكون حقائقها.

لَيْسَ الثَّقَلُ بِكَثْرَةِ الْحَرَكَةِ وَحَدِّهَا

قال سبحانه: ﴿ثَقُلْتُ مَوَازِينَهُ﴾، ولم يقل: كثرت أعماله؛ لأن كثرة الحركة ليست هي المعيار الوحيد لقيمة العمل. قد يكثر العمل ويخف بسبب فساد القصد، وقد يبدو العمل قليلاً في أعين الناس ويثقل بما فيه من إخلاص وصدق وموافقة للحق. فليست القضية حشداً ألياً للأفعال، وإنما بناء إنسان مؤمن تصبح أعماله الصالحة ذات وزن عند الله.

إن العمل يكتسب ثقله من الإيمان الذي يصدر عنه، ومن الإخلاص الذي يطهره من طلب الخلق، ومن الصواب الذي يجعله موافقاً لما شرع الله، ومن الصدق الذي يمنع القلب من أن يقول بفعله ما لا يريده بحقيقته. ولهذا قد يقف رجل موقفاً

واحدًا من الحق في لحظة خوف، فيكشف ذلك الموقف حقيقة عمر كامل؛ وقد تمتنع نفس عن حرام لا يراها فيه أحد، فيكون امتناعها أثقل من كلمات كثيرة قيلت أمام الجماهير؛ وقد يسمح إنسان دمعة يتيماً، أو يستر محتاجاً، أو يعفو وهو قادر، أو يرد مظلمة لا يعلم بها أحد، فتدخل هذه الأعمال الخفية إلى ميزان لا تضيع فيه الخفايا.

وفي المقابل، قد يكون العمل ضمن الصورة خفيف الحقيقة؛ مشروعاً واسعاً يراد به المجد الشخصي، أو كلاماً بليغاً يطلب به صاحبه المنزلة، أو عطاءً كثيراً يتخذه المعطي سلباً إلى قلوب الناس. وهنا نتعلم الروح ألا تكتفي بالسؤال: ماذا فعلت؟ بل تسأل كذلك: لمن فعلت؟ وبأي قلب فعلت؟ وعلي أي هدي فعلت؟ وهل كان العمل جسراً إلى الله أم مرآة أرى فيها نفسي؟

وليس معنى ذلك أن يقلل الإنسان من شأن كثرة الطاعات، بل أن يحرس الكثرة من الآفات التي تفرغها من وزنها. فالمؤمن يجتهد، ويستكثر من الخير، لكنه لا يغتر بما عمل؛ يعلم أن التوفيق من الله، وأن القبول فضل منه، وأن الجنة لا تنال بمجرد استحقاق يتعالى به العبد على ربه، وإنما يدخلها المؤمن برحمة الله وفضله، وتكون أعماله الصالحة أسباباً أقامها الله ودلائل على صدق إيمانه. فهو يعمل ولا يتكل على عمله، ويرجو ولا يأمن مكر نفسه، ويخاف من الرد بقدر ما يفرح بالتوفيق.

الْأَعْمَالُ الَّتِي لَا يَرَاهَا أَحَدٌ

إن من أرحم معاني الميزان أن الإنسان لن يحتاج يوم القيامة إلى جمهورٍ يشهد بقيمته؛ لن يضره أن الناس لم يفهموه حين كان مستقيماً، ولا أن أحداً لم يصفق لصبره، ولا أن تضحياته عبرت صامتةً تحت أعين غافلة. فما دام الله قد رأى، فلا يضيع شيء، وما دام الميزان بيده، فلا يحتاج الحق إلى ضجيج يحفظ وزنه.

كم من إنسان عاش مجهولاً في الأرض، لكنه معروف في السماء بما حمل قلبه من يقين! وكم من أمٍّ استنفدت عمرها في تربية أبنائها ولم يكتب التاريخ اسمها، لكن لياليها المتعبة محفوظة في علم الله! وكم من فقير اقتسم القليل مع من هو أشد فقراً، فلم تلتقط عدسة عطاياه، ولم تنشر الصحف خبره، لكنه أودع في الميزان ما قد يسبق به أصحاب الصور اللامعة! وكم من صاحب مبدأ عاش غريباً، ودفع من راحته وأمنه وسمعته ثمناً لرفض الباطل، ثم مضى دون أن تنصفه الجماعة؛ لكنه سيجد يوم القيامة أن ما ظنه الناس خسارة كان هو الثقل الذي أنقذه!

هذه هي عدالة الآخرة التي تعيد للخير الخفي مكانته، وتجبر قلوب الذين لم يجدوا في الدنيا جزاءً يوازي صدقهم. إنها تقول لكل إنسان يعمل لله في صمت: لا تحزن إن لم ير الناس، فالموازين لا تقيمها أعينهم؛ ولا تضعف إن لم يشكروا، فجزاء عملك ليس رهين ذاكرتهم؛ ولا تغير نيتك لتنال حضوراً سريعاً، فما عند البشر يزول بانصرافهم، وما عند الله يبقى.

كما أنها تقول لمن امتلأت حياته بالظهور: لا تجعل اطلاق
الناس بديلاً من نظر الله إليك؛ فقد تكون عظيماً في أعينهم
خفيفاً في الميزان، وقد تحيطك كلمات الإعجاب بينما يخلو
عملك من المادة التي تمنحه البقاء. إن الشهرة لا تزيد حسنة في
حقيقتها، والخفاء لا ينقصها، إنما الذي يحدد الوزن هو علم الله
بحقيقة العبد والعمل.

مَنْ وَزَنَ الْأَعْمَالِ إِلَى وَزَنِ الْإِنْسَانِ

ليست الأعمال أشياء منفصلة عن الإنسان؛ إنها، مع تكرارها،
تصنع ملامح روحه. فالصدق المتكرر يبني إنساناً صادقاً، والرحمة
تبني نفساً رحيمة، والصبر يوسع القلب، والطاعة تحرره من
عبودية الهوى. وفي المقابل، لا تقع الخيانة خارج صاحبها ثم
تنتهي، بل تترك فيه شيئاً من الخفة والتصدع، كما يترك الظلم
قسوة في روحه، ويترك الكذب شرخاً بين ظاهره وباطنه.

ولهذا فإن الحديث عن ثقل الموازين هو حديث، في وجه من
وجوهه، عن الإنسان الذي صنعتته اختياراته. نحن لا نحمل
أعمالنا إلى الآخرة بوصفها أحمالاً خارجية فحسب، بل نصل إلى
الآخرة وقد صارت أعمالنا جزءاً من حقائقنا. لقد أعطانا الله
العمر مادة خاماً، ثم ترك لاختياراتنا - في نطاق التكليف
والمشيئة التي منحنا إياها - أن تحدد ما نصنع من هذه المادة:
روحاً كثيفة بالإيمان والخير، أم روحاً بددتها الأهواء حتى لم
يبق فيها ما يثقل.

ومن هنا كانت التوبة تحولاً عميقاً في مسار الإنسان؛ فهي ليست محاولةً لفظية لمحو سجل قديم مع الإصرار على السير نفسه، بل عودة تعيد تشكيل الوجهة، وندم يقطع الرضا بالخطيئة، وعزم يفتح عمراً جديداً. ومن رحمة الله أن الموازين لا تزال، ما دام الإنسان حياً، قابلة لأن يضيف إليها من الخير، وأن يتوب من الشر، وأن يستدرك ما ضاع. قد يكون الماضي خفيفاً، لكن باب الثقل لم يغلق؛ وقد تكون الصحيفة مثقلة بالأوزار، لكن رحمة الله أوسع، والتوبة الصادقة قادرة بإذن الله على أن تغير المصير.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾

لا تترك الآية صاحب الموازين الثقيلة واقفاً عند لحظة الحساب، بل تنقله مباشرة إلى النتيجة: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. جاء التعبير بـ ﴿عِيشَةٍ﴾ لا بمجرد النجاة؛ لأنَّ الجزاء ليس إفلاتاً من العذاب فحسب، وإنما دخول في حياة كاملة طيبة. النجاة تزيل الخوف، أما العيشة الراضية فتمنح فوق ذلك الأمن والرضا والنعيم والقرب والطمأنينة التي لا يعكرها فناء.

ونُسب الرضا إلى العيشة نفسها، فقليل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، وفي ذلك تصوير بديع لكاملها؛ كأن الحياة من شدة حسناتها قد رضيت عن صاحبها، أو هي عيشة ذات رضا، يجدها صاحبها مرضية من كل وجه، فلا يتطلع إلى غيرها، ولا يخشى انقطاعها، ولا يداخل لذتها قلق من زوال. ففي الدنيا لا تخلو عيشة من نقص؛ إن حضر المال غاب الأمن، وإن حضر

الأمن هدد المرض، وإن اجتمعت النعم ظل الموت واقفاً عند نهايتها. أما العيشة الراضية فلا يقف خلفها فناء، ولا يسكن داخلها خوف، ولا يتربص بها تحول.

إن التعبير لا يصف مكاناً فحسب، بل يصف حالة وجود كاملة. في الجنة لا يكون الإنسان محاطاً بالنعم وقلبه عاجزاً عن تذوقها، كما يحدث في الدنيا حين يملك المرء أشياء كثيرة ولا يملك الرضا؛ بل تنزع أسباب الألم من الخارج، وتنزع جذور الشقاء من الداخل، فيلتقي جمال النعمة بصفاء النفس. فلا حسد، ولا حقد، ولا خوف، ولا ندم، ولا ذكرى جارحة تفسد الحاضر، ولا مستقبل مجهول يهدد الأمن. تلك هي العيشة التي يرضى عنها صاحبها ويرضى فيها، لأنها جاءت من عند الله الذي يعلم حاجة الروح قبل حاجة الجسد.

وما أجمَل التناصب بين ثقل الموازين والعيشة الراضية؛ فقد ثقلت موازينه لأنه لم يجعل رضا نفسه العاجل غايته في الدنيا، بل طلب رضا الله، وصبر عن لذة محرمة، وحمل تكاليف الأمانة، وقاوم خفة الهوى. فكانت النتيجة أن أدخله الله عيشة لا يعرف فيها إلا الرضا. لقد ترك بعض ما تشتهيه نفسه وقتاً قصيراً، فنال ما يرضيها أبداً؛ وحمل ثقل التكليف في الدنيا، فوصل إلى خفة النعم في الآخرة.

إن طريق العيشة الراضية قد يمر في الدنيا بأيام غير راضية؛ بألم الصبر، ووحشة الاستقامة، وثقل التكليف، ومقاومة الشهوات، وخسارات يفرضها الوفاء للحق. قد لا تبدو حياة المؤمن دائماً سهلة للنظر من خارجها، لكنه يبني في تلك

المجاهدة وزناً لا يضيع. فليست كل راحة عاجلة مقدمة لراحة دائمة، ولا كل مشقة مؤقتة علامة شقاء. أحياناً يكون الطريق الوعر هو الطريق الوحيد إلى العيشة الراضية، ويكون الطريق المملوء بالمتع السريعة منحدرًا ناعمًا إلى الهاوية.

حَيَاةٌ تَرْضَى عَنْ صَاحِبِهَا

توحي الآية كذلك بأن الحياة الأخروية ليست غريبةً عن العمل الدنيوي، بل هي ثمرته التي أظهرها فضل الله. فالعمل الصالح في الدنيا بذرة، والعيشة الراضية اكتمال ازدهارها؛ الصديق هنا يتحول أماناً هناك، والرحمة هنا تعود على صاحبها رحمة، والصبر القصير يصبح نعيمًا لا ينقطع. ليست العلاقة بين الدنيا والآخرة علاقة انفصال، بل علاقة زرع وحصاد؛ وما يزرعه الإنسان في عالم الغيب عن عينه، يراه يوم القيامة عالماً يحيط به.

وفي هذا المعنى يتغير مفهوم النجاح كله. ليس الناجح هو الذي استطاع أن يجعل حياته الدنيوية راضية عنه ولو خسر آخرته، وإنما الناجح من رضي الله عنه وأدخله عيشة راضية. وقد يخسر الإنسان بعض راحته ليحفظ ميزانه، وقد يفوت منفعة لأنه لا يريد لها من حرام، وقد يخرج من صراع الدنيا قليل الحظ من الغنيمة لكنه عظيم الحظ من الصديق؛ وعند القارعة يتبين أن ما ضاع منه لم يكن هو الخسارة، وأن ما حفظه في ميزانه كان هو الربح الحقيقي.

وكلما أيقن المؤمن بهذه العيشة اتسعت نفسه أمام حرمان الدنيا؛ فلا يعود كل فائت مأساة، ولا كل مؤجل ضياعاً، ولا كل متاع لم ينله دليلاً على أنه أقل حظاً. إن هناك عيشة راضية لا تنالها المصادفات، ولا يحتكرها الأغنياء، ولا تغلق أبوابها في وجه الفقراء، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح وفضل الله ورحمته. وحين تدخل هذه الحقيقة إلى القلب، يصبح الإنسان قادراً على أن يعيش الدنيا دون أن يطلب منها أن تكون جنة؛ لأنه يعرف أن الجنة أمامه، وأن هذه الحياة ميدان وزن لا دار جزاء كامل.

غير أن السورة لا تسمح للقلب أن يستريح طويلاً عند هذا المشهد المشرق؛ فالميزان الذي يكشف الثقل يكشف الخفة أيضاً، والطريق الذي ينتهي إلى العيشة الراضية يقابله طريق آخر ينتهي إلى مصير مرعب. وكما فصل حال الناجين، لا بد أن يفصل حال الذين دخلوا يوم الحساب بلا وزن ينقذهم:

الفصل الرابع

خِفَّةُ الْمَوَازِينِ: حِينَ يَمْتَلِئُ الْعُمُرُ بِالْحَرَكَةِ وَيَفْرُغُ مِنَ الْقِيَمَةِ

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ

بعد أن عرضت السورة مصير من ثقلت موازينه، وفتحتته على تلك العبارة المطمئنة التي يكاد الرضا يفيض من حروفها: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، انعطفت إلى الجهة المقابلة من الميزان، وإلى المصير الذي تقشعر له النفس: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾. فلا تقف السورة عند بشارة النجاة، ولا تسمح للإنسان أن يأخذ من مشهد الآخرة ما يوافق أمانيه ويترك ما يهدم غروره؛ لأن القرآن يبني الوعي على الحقيقة كاملة، والحقيقة أن الميزان لا يكشف الثقل وحده، بل يكشف الخفة، وأن اليوم الذي تظهر فيه قيمة الإيمان والعمل الصالح تظهر فيه كذلك فداحة العمر الذي مرّ دون أن يودع صاحبه في ميزانه ما ينجيّه.

إن كلمة ﴿خَفَّتْ﴾ أشدّ إيلاماً من مجرد القول: كثرت سيئاته؛ لأنها تكشف فراغاً في حقيقة الإنسان، وتصور حياة امتدت في الزمن، وامتلات بالحركة، وربما ازدحمت بالأحداث والأعمال والكلمات، ثم انتهت إلى خفة لا تحمل صاحبها إلى النجاة. عاش سنوات طويلة، ودخل في معارك كثيرة، وجمع

من الأشياء ما جمع، وملاً المجالس بحضوره، وتضخمت صورته في أعين الناس، لكنه حين وضع في ميزان الله لم يجد في كل ذلك ما يمنحه الثقل الحقيقي.

إنها مأساة العمر الذي يبدو ممتلئاً من الخارج وهو فارغ من الداخل؛ ممتلئاً بالمواعيد، فارغاً من الغاية؛ ممتلئاً بالكلام، فارغاً من الصدق؛ ممتلئاً بالمكاسب، فارغاً من البركة؛ ممتلئاً بإعجاب الناس، فارغاً من رضا الله. وقد تكون الخفة مختبئة تحت مظاهر ضخمة؛ لأن الإنسان يستطيع في الدنيا أن يحيط فراغه بالزينة، وأن يخفي هشاشته خلف الضجيج، وأن يقنع نفسه بأنه عظيم ما دام الناس ينظرون إليه، لكن الميزان ينزع عن الأشياء أجامها المستعارة ويعيدها إلى حقيقتها.

كم يبدو الإنسان في الدنيا ثقيلاً بما يملك، ثم يأتي يوم القيامة خفيفاً بما هو عليه! وكما يبدو آخر خفيفاً في موازين المجتمع؛ لا مال له، ولا سلطان، ولا شهرة، ولا جمهور، ثم يأتي عند الله بثقل الإيمان والصدق والصبر! إن سورة القارعة تعيد تعريف الإنسان من جذوره: لست ما يحيط بك، بل ما يستقر في قلبك ويصدر عنك من عمل؛ ولست حجم صورتك في ذاكرة الناس، بل وزن حقيقتك في ميزان الله.

الْفَرَاغُ الَّذِي تُخْفِيهِ الْحَرَكَةُ

ليس كل متحرك حياً من الداخل، وليس كل منشغل صاحب غاية، وليس كل من ملاً يومه قد عمر عمره. فقد تحول الحركة نفسها إلى وسيلة هرب؛ يهرب الإنسان بها من السؤال الأكبر: إلى أين أمضي؟ وما الذي أبنيه في نفسي؟ وماذا يبقى

من كل هذا عند القارعة؟ فينتقل من عمل إلى عمل، ومن خبر إلى خبر، ومن رغبة إلى أخرى، حتى تنقضي السنوات دون أن يقف لحظة ليرى أن حياته تتسرب فيما لا يثقل ميزانه.

إن أخطر صور الخفة ليست أن يعيش الإنسان بلا شيء، بل أن يعيش محاطاً بكل شيء إلا الحقيقة. أن يعرف تفاصيل العالم ويجهل مصيره، وأن يحسن الحديث عن الناس ولا يحسن محاسبة نفسه، وأن يتقن صناعة صورته ويهمل صناعة قلبه، وأن يطلب من الدنيا كل يوم إضافة جديدة إلى ممتلكاته بينما لا يضيف إلى ميزانه شيئاً.

والعصر الذي يضاعف سرعة الإنسان لا يمنحه بالضرورة عمقاً؛ فقد تكثر وسائل الاتصال ويزداد القلب عزلة عن الله، وتوسع المعرفة بالمعلومات ويضيق الوعي بالحكمة، وتتسارع حركة الحياة حتى لا يعود الإنسان قادراً على السكون الذي يرى فيه نفسه. والخطر ليس في الوسائل ذاتها، وإنما في أن يتركها الإنسان تصنع له حياة سريعة خفيفة تمر فوق الأشياء دون أن تنفذ إلى معناها، وتستهلك قلبه في المتغيرات حتى يغفل عن الحقيقة التي لا تتغير.

وسورة القارعة تقف أمام هذه السرعة كلها بكلمة واحدة: ﴿خَفَّتْ﴾. كأنها تسأل كل إنسان: ما وزن هذه الأيام التي تتسابق؟ ماذا يبقى من الرسائل والصور والأخبار والخصومات بعد أن تنطفئ الشاشات وتنتهي الأصوات؟ كم أعطيت من وقتك لما يملأ اللحظة ولا يملأ الميزان؟ وكم أهملت من أعمال الخير لأنها صامته لا تصنع حولك ضجيجاً؟

قد يملك الإنسان آلاف اللحظات المملوءة بالمتعة، ثم لا يجد بينها لحظة واحدة وقف فيها صادقاً بين يدي الله. وقد يقرأ آلاف الكلمات، ثم لا تستقر في قلبه كلمة تهديه. وقد يعرف آلاف الأشخاص، ثم لا يكون عوناً صادقاً لإنسان واحد. وقد يخوض آلاف النقاشات دفاعاً عن الحق، ثم يعجز عن قول الحق لنفسه حين تخطئ. هذه هي الخفة التي تختبئ خلف الكثرة؛ أن تتضاعف الأشياء دون أن تتضاعف القيمة.

خَفَةُ الْعَقِيدَةِ وَخَفَةُ الضَّمِيرِ

إن الثقل الأول في ميزان الإنسان هو توحيد الله والإيمان به؛ فبدون الإيمان الحق تفقد الأعمال أصلها الذي يصلها بالله وبالدار الآخرة. ليست القضية أن يكون الإنسان نافعا وفق ما يضعه لنفسه من مقاييس فحسب، وإنما أن يعرف خالقه، ويعبده، ويقبل خبره، ويستجيب لهديه، ويعمل صالحاً ابتغاء وجهه. فالوجود ليس ملكاً للإنسان حتى يحدد وحده غايته ومعايير قيمته، بل هو عبد مخلوق لله، ومسؤول أمامه، ولا يستقيم الفرع حين ينقطع عن أصله.

ومن خفة العقيدة أن يعيش المرء كأن الله لا يراه، وكأن الآخرة احتمال بعيد، وكأن الإنسان خلق نفسه ومنحها حق تقرير الخير والشر بمعزل عن وحي خالقها. وحين يضعف اليقين بالآخرة يخف أثرها في القرار؛ فيصبح الحاضر هو المعبود العملي، وتحول المنفعة العاجلة إلى الميزان، ويغدو الإنسان مستعداً لبيع القيم إذا ارتفع الثمن.

لكن الخفة لا تظهر في التصورات وحدها، بل تنسلل إلى الضمير: يخف عند الإنسان شأن الكلمة فيقولها بلا مبالاة، ويخف شأن الدم فيسفكه أو يبرره، ويخف شأن العرض فيخوض فيه، ويخف شأن الأمانة فيخونها، ويخف شأن الضعيف فيدوسه، ويخف شأن الحق فيؤجله كلما تعارض مع مصلحته. وهكذا لا تبدأ خفة الميزان يوم القيامة فجأة، وإنما تبدأ في الدنيا حين تخف المحرمات في القلب، وحين تتحول العظائم إلى تفاصيل، وحين يصبح الظلم عادياً لكثرة ما تكرر.

والإنسان لا يسقط في الهاوية دائماً بخطوة واحدة صاحبة، بل قد يسير إليها عبر تنازلات صغيرة لم يكن يرى لكل واحدة منها خطراً. يسكت اليوم عن باطل حفاظاً على منفعة، ثم يبرره غداً، ثم يدافع عنه بعد غد، حتى تتحول الخفة الأخلاقية إلى بنية كاملة في نفسه. وكل مرة يخون فيها ما يعرفه من الحق يفقد قلبه شيئاً من ثقله، وكل مرة يقدم فيها رضا الناس على رضا الله يضعف في داخله مركز اليقين.

ولهذا كان المؤمن شديد العناية بصغائر الأمور؛ لا لأنه يضخم ما صغر الله، بل لأنه يعرف أن الجبال نفسها تتكون من الحصى، وأن الأعمال المتتابعة تصنع اتجاه العمر. وقد ثقل الموازين بأعمال ظنها صاحبها يسيرة فعظمتها النية والرحمة، وقد تخف بسبب خطايا استصغرها صاحبها حتى تراكت وأفسدت قلبه.

الْخِيفَةُ الَّتِي تَزَيُّ بِهَيْئَةِ الذِّكَاءِ

ومن أخطر أنواع الخيفة أن يتحول العقل من أداة للبحث عن الحق إلى وسيلة للهروب منه؛ فيتعلم الإنسان كيف يبرر كل هوى، وكيف يصنع لكل خيانة فلسفة، ولكل ظلم ضرورة، ولكل ضعف اسماً محترماً. يظن أنه صار أثقل فكراً لأنه أقدر على الجدل، بينما لم يزد الجدال إلا خيفة في الضمير.

ليس الذكي من يستطيع أن ينتصر في كل نقاش، بل من لا يسمح لذكائه أن يخدعه عن الحقيقة. وليس العاقل من يجد مخرجاً لغويا من كل مسؤولية، بل من يعرف أن مخارج اللغة لا تغير مداخل الأعمال إلى الميزان. قد يستطيع الإنسان أن يقنع الناس بسلامة موقفه، وربما يقنع نفسه، لكنه لا يستطيع أن يغير علم الله بحقيقته.

وتزداد الخيفة حين يتحول الحق من غاية إلى أداة؛ يدافع عنه الإنسان عندما يخدم جماعته، ويسكت عنه عندما يدينها، يستحضر العدل حين يكون مظلوماً وينساه حين يملك القوة، يرفض الكذب من خصمه ثم يقبله من حليفه. عندئذ لا يكون الحق أثقل الأشياء في قلبه، بل تصبح العصبية والمصلحة والهوى أثقل منه، وإن ظل اللسان يرفع شعاراته.

إن الميزان الإلهي لا يسأل المرء عن عدد المرات التي تحدث فيها عن الحق فحسب، بل عن عدد المرات التي خضع فيها للحق حين كان ضد رغبته. فهناك تظهر حقيقة الإيمان: أن يكون

الله ورسوله أحب إلى الإنسان من انتصار ذاته، وأن يقبل العدل ولو أنقص نصيبه، وأن يرد المظلمة ولو كان المستفيد منها، وأن يعترف بالخطأ ولو اهتزت صورته.

أَعْمَارٌ كَبِيرَةٌ وَمَوَازِينٌ خَفِيفَةٌ

لا يُقاس ثقل العمر بطوله؛ فقد يعيش الإنسان سنين كثيرة ولا يترك وراءه إلا فراغا طويلا، وقد يقصر عمر آخر ويمتلي بمعان تبقى بعده. إن الزمن وعاء، والقيمة فيما يوضع فيه. واليوم الذي يمر لا يعود، لكنه لا يختفي؛ إما أن يدخل في ميزان صاحبه نورا، وإما أن يدخل عليه حسرة، وإما أن يمضي فارغا فيشهد على إضاعته.

إن أكثر ما يرعب في قوله تعالى: ﴿خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أن صاحبه لم يأت إلى الميزان بلا عمر؛ لقد أعطي أياما وليالي، وفتحت له أبواب، وبلغته نذر، ومرّت به لحظات كان يستطيع فيها أن يتوب ويصلح ويستدرك. لكنه استبدل بالباقي الفاني، وبالثقل الخفيف، وبالحقيقة الصورة، حتى وصل إلى النهاية فاكشف أن كل ما جمعه لم يأت معه، وأن كل ما كان يمكن أن يأتي معه لم يجمعه.

كان يستطيع أن يجعل من ماله صدقةً فجعله مفخرة، وأن يجعل من علمه هدايةً فجعله سلماً للعلو، وأن يجعل من سلطانه عدلا فجعله أداةً للانتقام، وأن يجعل من ألمه رحمةً بالمتألمين فجعله قسوةً على الناس، وأن يجعل من عزله باباً لمعرفة الله ففلاها بما يزيده بعدا. لقد كانت المادة بين يديه قابلةً لأن تتحول إلى وزن، لكنه أنفقها في صناعة ما لا يبقى.

ومع ذلك فإن الآية، ما دامت تُقرأ في الدنيا، ليست حكماً نهائياً على حي، وإنما تحذير يفتح باب النجاة. لسنا نحن الذين نزن الناس، ولا نملك أن نحكم لمعين بمصير؛ فذلك إلى الله وحده، العليم بالقلوب والأعمال، العادل الذي لا يظلم أحداً، الرحيم الذي فتح أبواب التوبة. إن وظيفة الآية أن تجعل كل واحد يخاف على ميزانه، لا أن تمنحه سلطة يتعالى بها على موازين الآخرين.

أخطر ما يمكن أن يفعله قارئ هذه السورة أن ينشغل بالبحث عن مخف موازينه خارج نفسه؛ فيشير إلى الناس، وينسى أنه هو المخاطب، وأن الميزان الذي يحتاج إلى إصلاحه هو ميزانه. إن القرآن لم ينزل لينح النفس مرآة ترى فيها عيوب خصومها، بل لينحها بصيرة ترى بها عيوبها هي.

المُفَارَقَةُ: الْخَفِيفُ هُوَ الَّذِي يَسْقُطُ

في قوانين الحس المألوفة نتخيل أن الثقيل يهبط، وأن الخفيف يرتفع، لكن السورة تقلب هذه الصورة في ميزان المصير: من ثقلت موازينه ارتفع إلى العيشة الراضية، ومن خفت موازينه هوى في الهاوية. فالآخرة لها منطقها الأخلاقي؛ الثقل فيها قوة ترفع، والخفة فيها فراغ يسقط.

إن الإيمان ثقيل لأنه يثبت الروح حين تتطاير الأهواء، والصدق ثقيل لأنه يحفظ الإنسان من التبعر بين الوجوه، والأمانة ثقيلة لأنها تمنحه مركزاً داخلياً لا تزعزع الإغراءات. أما الكذب خفيف يتلون مع كل ظرف، والنفاق خفيف ينتقل صاحبه مع اتجاه المنفعة، والهوى خفيف لا يملك

الإنسان معه وجهةً ثابتة. ولذلك كان أهل الحق راسخين وإن قل عددهم، وكان أهل الباطل مبثوثين في أعماقهم وإن بدوا مجتمعين.

من لا يحمل في داخله قيمةً أثقل من الخوف يغيره الخوف، ومن لا يحمل مبدأً أثقل من المال يشتريه المال، ومن لا يحمل يقيناً أثقل من شهوته تسوقه الشهوة حيث شاءت. الإنسان الثقيل روحياً ليس المتجهم ولا المتكبر، بل هو الذي له مركز من الإيمان؛ يعرف لمن يعيش، وما الذي لا يبيعه، وأين يقف حين تختلط الطرق.

أما خفة الروح فإن يكون الإنسان قابلاً لأن تأخذه كل ريح؛ يمدح اليوم ما ذمه بالأمس، ويوالي من كان يعاديه إذا انتقلت المنفعة، ويضعف عن قول كلمة الحق لأن صورته عند الناس أثقل في قلبه من رضا الله. إنه يشبه، قبل القارعة، الفراش المبتوث الذي وصفته السورة؛ فلا اتجاه ثابت، ولا مركز، ولا قدرة على مقاومة الضوء الخادع الذي يستدرجه.

﴿فَأَمَّهُ هَآوِيَةٌ﴾

ثم تأتي النتيجة في تركيب قرآني مزلزل: ﴿فَأَمَّهُ هَآوِيَةٌ﴾. لم يقل: فقصيره إلى الهاوية فحسب، بل قال: ﴿فَأَمَّهُ﴾. والأم في أصل التجربة الإنسانية موضع الرجوع والأمن والاحتضان؛ إليها يأوي الطفل، وبقرها يجد أول معاني السكينة. لكن الآية

تقلب الصورة قلباً مربعاً: هذا الذي خفت موازينه لا يجد مأوى يأوي إليه إلا الهاوية، فكأنها أمه التي تضمه، ومرجعه الذي لا مرجع له سواه.

إنه تعبير يجمع شدة المصير وسخرية المفارقة؛ فقد بحث الإنسان في الدنيا عن المأوى في المال والقوة والجماعة والشهوة، واتخذ من دون الله مواضع يأوي إليها قلبه، فلما جاءت القارعة سقطت الملاجئ كلها، وأصبح مأواه الأخير هو الهاوية. ما ظنه أماناً لم يحمه، وما ظنه بيتاً لم يستقبله، وما ظنه قوة لم يحمل عنه شيئاً.

والهاوية من الهوي، وهو السقوط إلى أسفل بعيد. والكلمة في ذاتها تفتح في الخيال حفرة لا يرى لها قراراً، وسقوطاً يستمر تحت صاحبه، ورهبة تجمع عمق المكان وشدة المصير. إنها هاوية لأن صاحبها يهوي فيها، ولأنها بعيدة القعر، ولأن الحياة التي أعرضت عن هدي الله كانت في حقيقتها سقوطاً طويلاً وإن ظهر صاحبها صاعداً في عيون الناس.

قد يصعد الإنسان في الدنيا درجة بعد درجة على سلم الشهرة والسلطان، لكنه إذا كان يصعد بالظلم والخيانة فإنه، في الميزان الحقيقي، لا يصعد بل يهوي. إن العين البشرية ترى ظاهر الحركة، أما الوحي فيكشف اتجاهها الأخروي؛ فقد يكون من يسكن القصر ساقطاً، ومن يلقي في السجن مرتفعاً، وقد يكون المنتصر في معركة القوة مهزوماً في ميزان الحق، والمهزوم ظاهرياً قد حفظ الله له ثقل الموقف وكرامته.

الهاوية إذا ليست حادثةً منفصلةً تماماً عن طريق صاحبها، بل هي النهاية التي تناسب اتجاهه؛ فقد ظل يهوي أخلاقياً كلها قدم شهوته على أمر الله، وكلها باع الحق، وكلها استخف بالضعفاء، وكلها أفرغ قلبه من الإيمان. وحين تنتهي الدنيا تسقط عنه الأرض الوهمية التي كان يقف عليها، فيظهر السقوط الذي لم يكن يراه.

حِينَ يَفْقِدُ الْإِنْسَانُ كُلَّ مَلْجَأٍ

الإنسان كائن يبحث دائماً عن مأوى؛ يأوي إلى أسرة، أو وطن، أو جماعة، أو فكرة، أو مال، أو مكانة. وهذه كلها قد تكون نعماً كريمة، لكنها لا تصبح مأوى نهائياً؛ لأنها نفسها محتاجة إلى الله، محكومة بالزوال، عاجزة عن حماية الإنسان من الموت والحساب. والمأوى الحقيقي هو الله: أن يعرفه العبد، ويتوكل عليه، ويستقيم على أمره، ويعود إليه بقلبه قبل أن يعود إليه بمصيره.

ومن لم يأو إلى الله في الدنيا تتخطف قلبه الملاجئ المؤقتة؛ كلها سقط واحد منها بحث عن آخر، وكلها خذله شيء تعلق بشيء. يظن أن الزيادة ستمنحه الأمن، لكنه كلما زاد ما يملك زاد خوفه من الفقد. ويظن أن إعجاب الناس سيملاً فراغه، لكنه يصبح أسيراً لتقلب أنظارهم. ويظن أن القوة ستنتهي قلقه، فإذا بها تفتح أمامه أبواباً جديدة من الخوف.

أما المؤمن فيأخذ من الدنيا ما أباح الله، ويحب أهله ووطنه، ويسعى في رزقه، لكنه يعرف أن هذه الأشياء ليست آلهةً تحفظ المصير. مأواه الباطني هو ربه، ولهذا لا تنهار روحه تماماً

حين تسقط الأسباب؛ يتألم، ويحزن، ويضعف أحياناً، لكنه يعرف جهة العودة. وقد تعلم من القرآن ألا يجعل قلبه يتيماً عن الله.

في قوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ تحذير من أن يبحث الإنسان عن الأمومة الروحية في الشهوة؛ أن يطلب منها الاحتضان والذسيان، فتمنحه لحظة دفاء ثم تتركه أبرد قلباً وأشد فراغاً. وتحذير من أن يتخذ الجماعة أمّاً تلغي ضميره، أو السلطة أمّاً تمنحه هوية مستعارة، أو الشهرة أمّاً توهمه أنه موجود ما دامت العيون عليه. كل أمومة بديلة عن العبودية لله قد تتحول في النهاية إلى هاوية؛ لأنها تربط الإنسان بما لا يملك نجاته.

مَا دَامَ الْمِيزَانُ لَمْ يَنْصَبْ بَعْدُ

ومع ما في الآيتين من رهبة، فإن وجودنا الآن في الدنيا هو باب الرجاء العظيم؛ فالموازن لم تنصب لنا بعد، والصحف لم تغلق، والهاوية لم تصبح مصيراً محتوماً على حي يستطيع أن يتوب. ما يزال في العمر متسع - ولو كان لحظة - ليضع الإنسان في ميزانه صدقاً بعد كذب، وأمانة بعد خيانة، ورحمة بعد قسوة، وتوبة بعد إصرار.

ليست العبرة أن يتحسر المرء على خفة ماضيه حتى يقعد، بل أن يحول الحسرة إلى ثقل في مستقبله. وقد تكون التوبة الصادقة نفسها من أثقل ما يأتي به؛ لأنها تتضمن اعترافاً يسقط كبرياء النفس، وندماً يطهر القلب، وعزماً يغير الطريق. والله الذي حذر من الهاوية هو الذي فتح باب الرحمة، والذي أخبر عن النار هو الذي دعا عباده إلى المغفرة.

إن الخوف الصحيح لا يقول للإنسان: لقد انتهيت، وإنما يقول: استيقظ قبل أن تنتهي. لا يدفعه إلى اليأس، بل يحيرُه مِنَ التَّأْجِيلِ. فما دام يسمع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَتِ مَوَازِينَهُ﴾ وهو قادر على العمل، فإن الآية لم تأت لتسلمه إلى الهاوية، بل لتمنعه من السير إليها.

وتقف السورة عند كلمة ﴿هَآوِيَةً﴾ فتترك النفس أمام اسم موحش مفتوح على المجهول؛ ما هذه الهاوية؟ وما حقيقتها؟ وكيف يكون هذا المأوى الذي انتهى إليه صاحب الميزان الخفيف؟

ثم تعود الصيغة التي وردت في أول السورة، لتدل على أن حقيقة المصير فوق ما تستوعبه التصورات:

الفصل الخامس

النَّارُ الْحَامِيَةُ: حِينَ يَنْتَهِي السُّقُوطُ إِلَى الْمَصِيرِ الَّذِي لَا
يَحْتَمِلُ

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾

انتهى الفصل السابق عند تلك العبارة القرآنية المزلزلة: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾، وبقيت النفس واقفةً أمام هذا الاسم، تحاول أن تدرك ما وراءه: ما الهاوية؟ وما حقيقتها؟ وما هذا المأوى الذي آل إليه صاحب الميزان الخفيف؟ وهنا تعود السورة إلى أسلوبها الأول، فتطرح السؤال الذي لا يراد به مجرد طلب الجواب، بل تفخيم الحقيقة وإظهار قصور الخيال البشري عن الإحاطة بها:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿٢﴾﴾

بدأت السورة بقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾، وتنتهي بسؤاله سبحانه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾؛ فكان سؤال الإدراك قد أحاط بالسورة من جهتيها: سؤال عن اليوم في بدايتها، وسؤال عن المصير في نهايتها. وبين السؤالين تتحرك البشرية والجبال والموازين؛ الناس كالفراش المبثوث، والجبال كالعهن المنفوش، وفريق في عيشة راضية، وفريق أمه هاوية. إن الإنسان محاط هنا بحقيقتين أعظم من خياله: حدث القيامة الذي لا يدرك هوله على كماله، ومصير النار الذي لا يدرك شدته على حقيقتها.

مِنَ الْقَارِعَةِ إِلَى الْهَآوِيَةِ

في أول السورة كان السؤال عن القارعة: ما هذا اليوم الذي يقرع العالم كله؟ وفي آخرها أصبح السؤال عن الهاوية: ما هذا المصير الذي ينتهي إليه فرد بعينه؟ بدأت الصورة كونية شاملة، ثم ضاقت شيئاً فشيئاً حتى أحاطت بإنسان واحد. انتقل الخطاب من العالم إلى الناس، ومن الناس إلى الجبال، ومن الجموع إلى الموازين، ومن الموازين إلى الفرد، ومن الفرد إلى مأواه الأخير.

وهذه الحركة من العام إلى الخاص تكشف أن القيامة، على اتساعها الكوني، ليست مشهداً بعيداً يتأمله الإنسان من الخارج، بل حقيقة تنتهي إليه شخصياً. قد يسمع عن تشقق العالم فيشعر أنه خبر ضخم لا يتعلق بتفاصيله الصغيرة، لكن السورة لا تتركه هناك؛ إنها تمضي به من زوال الكون إلى وزن عمله، ومن اضطراب البشرية إلى مصيره الفردي، حتى لا يعود قادراً على الاختباء وراء اتساع المشهد.

إن من أساليب النفس في الهرب أن تحول الآخرة إلى قضية عامة؛ تتحدث عن مصير البشر، وعن علامات الساعة، وعن أهوال القيامة، لكنها لا تسأل نفسها بجديّة: أين أكون أنا؟ ماذا يكون وزن عملي؟ وأي الطريقين يصير مصيري؟ فتأتي سورة القارعة لتعيد التضمير الفردي إلي مركز الخطاب: ﴿فَأَمَّا مِنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينَهُ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾. هناك «من» مفردة تقف أمام ميزانها، لا تستطيع أن تجعل معرفة الأخبار بديلاً من الاستعداد لها.

وما أكثر من ينشغل بتفاصيل النهاية عن إصلاح الطريق المؤدي إليها؛ يبحث في الجزئيات، ويجادل في الترتيب، ويجمع المعلومات، لكنه لا يضع في ميزانه توبة ولا صدقاً ولا مظلمة ردها إلى صاحبها. والمعرفة التي لا توقظ المسؤولية قد تتحول إلى ستار جديد للغفلة؛ يعرف الإنسان عن القارعة، لكنه لا يسمح لها بأن تفرع حياته.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهٗ﴾

جاء الضمير في قوله تعالى: ﴿مَا هِيَهٗ﴾ عائداً إلى الهاوية، وكأن الاسم وحده، على ما فيه من الرهبة، لم يكف لتصوير حقيقتها. إنك تسمع «الهاوية» فتتخيل سقوطاً وعمقاً وبعداً، لكن القرآن ينبهك إلى أن ما خطر في بالك لا يحيط بها، وأن ما عرفته في الدنيا من الحفر والأعماق والنيران لا يقيس عالم الغيب الذي أعده الله جزاءً لأهله.

وتأتي هاء السكت في ﴿هِيَهٗ﴾ لتمنح الإيقاع وقفةً ثقيلةً عند حافة السؤال؛ كأن الصوت نفسه يقف أمام المجهول لحظة قبل أن يأتي الجواب. ليست هناك جملة طويلة تشرح، ولا صور متتابعة تخفف الصدمة بتوزيعها على ألفاظ كثيرة؛ إنما سؤال يفتح الخوف، ثم كلمتان تهبطان بالجواب:

﴿نَارَ حَامِيَةٍ﴾

بهاتين الكلمتين تنتهي السورة. لا تزيد وصفاً، لأن القليل هنا يحمل من الهول ما يغني عن الاسترسال. الهاوية نار، وليست سقوطاً في فراغ ينتهي إلى عدم، وليست غياباً عن الوجود يهرب فيه الإنسان من نتائج عمله؛ إنها مصير حاضر وعذاب حقيقي. وهي ﴿حَامِيَةٌ﴾ قد بلغت الغاية في الحرارة والاشتعال، فلا تشبه نار الدنيا إلا في أصل الاسم، أما حقيقتها وشدتها فمن الغيب الذي أخبر الله به.

إن القرآن لا يحول النار إلى رمز نفسي مجرد، ولا يجعلها استعارة لندم الإنسان فحسب؛ النار حقيقة من حقائق الآخرة، كما أن الجنة حقيقة، والميزان حقيقة، والبعث حقيقة. نعم، يسبق العذاب ندم وحسرة وخزي، لكن ذلك لا يلغي حقيقة النار التي توعدها الله بها من استحقاقها. والإيمان بالغيب لا يعني أن نعيد تشكيله ليوافق حدود خيالنا، بل أن نسلم لله فيما أخبر، وأن نأخذ من الخبر ما يوقظ القلب ويحمل الجوارح على العمل.

نَارٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى كَثِيرِ الْوَصْفِ

كل نار في إدراك الإنسان حارة، فما معنى أن توصف هذه النار بأنها ﴿حَامِيَةٌ﴾؟ إن الوصف هنا ليس بياناً لأصل الحرارة فقط، بل إشعار ببلوغها الغاية التي لا تقاس بما عهده البشر. كأن الحرارة صارت صفتها الحاضرة التي تملأ تصورهما كله؛ نار متناهية في الحمى، لا فتور فيها، ولا برد يخففها، ولا انطفاء ينهيها.

وفي تكبير الكلمتين: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾، تعظيم وتهويل؛ أي نار تلك التي لا يملك الخيال أن يحيط بحدودها؟ وأي حمى تلك التي انتهى إليها إنسان كان يستطيع، في عمره القصير، أن يتقيها بسجدة وتوبة وصدق واستقامة؟ إن الاختصار هنا أبلغ من التفصيل، لأنه يترك النفس أمام الحقيقة دون حواجز لغوية، ويجعل الكلمتين تترددان في الوعي بعد انتهاء السورة.

وحين يقول الله: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾، فإن المؤمن لا يحتاج إلى زخرفة الخوف ولا إلى اختراع مشاهد لم يأت بها الوحي؛ يكفيه أن الذي خلق النار ووصفها، وهو أعلم بها، سماها حامية. إن رهبة الخبر آتية من صدق قائله، لا من المبالغات التي يضيفها البشر. وكلما ازداد العبد معرفةً بجلال الله وصدق وعده ووعيده، كانت الكلمة القرآنية القليلة أشد أثراً فيه من صفحات من التهويل الإنساني.

الْأُمُّ الَّتِي لَا تَرْحَمُ

حين نصل بين قوله: ﴿فَأُمُّ هَاوِيَةٍ﴾ وقوله: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾، ينكشف وجه شديد الرهبة في الصورة؛ فالذي خفت موازينه أصبحت النار مأواه الذي يضمه. الأم في الدنيا تحتضن وليدها لتحميه من الحر والبرد والخوف، أما هذه «الأم» فهي نار حامية؛ لا تحتضنه لتحميه، بل يحيط به عذابها. يا لها من نهاية لمن بحث طوال عمره عن الأمان بعيداً عن الله!

لقد احتمى في الدنيا بماله، فتركه. واحتمى بجماعته، فصار الناس كالفراش المبعوث. واحتمى بقوة الأرض، فصارت الجبال كالعهن المنفوش. واحتمى بصورته، فكشف الميزان حقيقته. واحتمى بالنسيان، فحاء الكتاب لا يغادر من عمله شيئاً. فلها سقطت الملاجئ كلها لم يجد إلا الهاوية.

وهكذا يتبين أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا معبود ولا بلا مأوى؛ فإن لم يجعل توكله على الله، جعل قلبه يأوي إلى شيء من خلقه، وإن لم يرج وجه الله، رهن نفسه بوجه البشر، وإن لم يطلب العزة من الله، طلبها من قوة تزول. والمشكلة ليست أن يحب الإنسان النعم أو ينتفع بالأسباب، وإنما أن يمنحها من قلبه ما لا يستحقه إلا الخالق، وأن يطلب منها أمناً نهائياً لا تملكه لنفسها.

إن كل مأوى بعيد عن الله يحمل في داخله بذرة انهياره. المال يمكن أن يزول، والصحة يمكن أن تضعف، والناس يمكن أن ينصرفوا، والسلطان يمكن أن ينتقل، والعمر نفسه ينتهي. أما الله سبحانه فهو الحي الذي لا يموت، والعبد الذي يأوي إليه بالإيمان والطاعة لا يعني ذلك أنه لا يبتلى، لكنه يملك في قلبه جهة لا تنهار حين تنهار الجهات.

النَّارُ وَجِدِيَّةُ الْحَيَاةِ

وجود النار يعني أن الحياة ليست تجربةً عابثة، وأن حرية الإنسان ليست لعبةً بلا نتائج، وأن الخير والشر لا ينتهيان إلى المصير نفسه. لو لم يكن وراء الظلم حساب، لتحولت دموع المظلومين إلى أحداث ضائعة في كون أصم؛ ولو لم يكن وراء

الإيمان والعمل الصالح جزاء، لأصبح الصبر عبثاً والتضحية خسارة لا معنى لها. لكن النار، كما الجنة، تؤكد أن للوجود بنية أخلاقية، وأن الله لم يخلق الإنسان سدى.

غير أن بعض النفوس تريد إلهاً يمنحها الوجود والرزق واللذة، ثم لا يسألها عما فعلت؛ يغفر دون توبة، ويسوي بين المعتدي والضحية، ويجعل رحمته إلغاءً لعدله وأمره ونهيه. وهذا تصور تصنعه الرغبة لا الوحي. فالله رحيم، ومن رحمته أنه أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وفتح باب التوبة، وضاعف الحسنات، وقبل من عباده الرجوع؛ وهو سبحانه شديد العقاب، لا يظلم أحداً ولا يضيع حقاً.

إن الرحمة التي لا تفرق بين من أصر على الظلم ومن تاب منه ليست رحمة بالمظلوم، والعدل الذي لا تترتب فيه نتائج على الاختيارات ليس عدلاً. ولذلك تجتمع في الإيمان معرفة رحمة الله والخوف من عقابه؛ فلا يقود الرجاء إلى الأمن الكاذب، ولا يقود الخوف إلى اليأس. المؤمن يرجو لأن الله رحيم، ويخاف لأنه سبحانه حق، ويعمل لأنه يعلم أن الرجاء الصادق لا ينفصل عن الاستجابة.

وذكر النار في القرآن ليس قسوةً على الإنسان، بل إنذار رحيم له قبل أن يصل إليها. القسوة أن يترك يسير إلى الهاوية دون تنبيه؛ أما أن يوصف له المصير، وأن يقرع قلبه مراراً، وأن يفتح له باب التوبة، فذلك من رحمة الله. إن الله يخبرك بالنار وأنت قادر على اتقائها، ويصف الهاوية وقد جعل بينك وبينها أعمالاً من الإيمان والطاعة والرجوع.

حِينَ تَفْقِدُ الْخَطِيئَةَ بَرَاءَتَهَا الْمَزِيئَةَ

في الدنيا تستطيع الشهوة أن تتزين، وأن تعرض نفسها بوصفها حرية أو متعة أو حقاً شخصياً لا يضر أحداً. ويستطيع الظلم أن يرتدي ثياب القوة والمصلحة، وأن يقدم نفسه ضرورة تفرضها السياسة أو المنافسة أو حماية النفوذ. لكن قوله تعالى: ﴿نَارَ حَامِيَةٍ﴾ ينزع عن الخطيئة زينتها، ويصل الفعل بمصيره، واللحظة بنهايتها، والبذرة بثمرتها.

ليست لذة المعصية هي حقيقتها الكاملة، وإنما حقيقتها تشمل ما تتركه في القلب وما تنتهي إليه إن لقي العبد الله مصراً عليها دون توبة. وليس مكسب الظلم هو حقيقته الكاملة؛ فالمكسب جزء عاجل من صورة سرعان ما تزول، أما الحق المسلوب والحساب المنتظر فهما من الحقيقة أيضاً. والقرآن يعيد وصل ما تفصله الغفلة: يصل الشهوة بالنار، والظلم بالميزان، والكلمة بالكتاب، والقرار بالمصير.

والإنسان الغافل ينظر إلى أول الطريق، أما المؤمن فينظر إلى آخره. يرى الحرام جميلاً في لحظته، لكنه يرى خلفه أثره في القلب ووقوفه في الميزان. ويرى الصدق مرّاً أحياناً، لكنه يرى خلف مرارته طمأنينة الضمير والعيشة الراضية. ومن هنا يكون الإيمان بالآخرة قوة معرفية تكشف الحاضر، لا مجرد خبر مؤجل عن المستقبل.

إن الشيطان لا يحتاج دائماً إلى أن يقنع الإنسان بأن النار غير موجودة؛ يكفي أن يجعله يتعامل معها كأنها بعيدة لا صلة لها بقراره الحالي. يقول له: تب غداً، أصلح لاحقاً، استمتع الآن،

ما يزال العمر طويلاً. وكل تأجيل صغير يوسع المسافة بين المعرفة والعمل، حتى يأتي الموت فيكتشف الإنسان أن «لاحقاً» لم تكن زمناً مضموناً، بل كانت كلمة اخترعتها الغفلة. لِمَاذَا أَنْتَهتِ السُّورَةُ بِالنَّارِ؟

كان يمكن للسورة أن تحتم بالعيشة الراضية، فترك في النفس مشهد النعيم، لكنها أخرجت صورة الهاوية والنار إلى النهاية؛ لأن السياق سياق قرع وإنذار وإيقاظ. سورة القارعة تريد أن تظلي الكلمة الأخيرة حاضرة في القلب بعد أن تنتهي التلاوة: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾. وكأن السورة قد أغلقت أبواب التهاون بكلمتين لا يستطيع الوعي الصادق أن يمر عليهما بارداً.

غير أن انتهاء السورة بالنار لا يعني أن رسالتها رسالة يأس؛ فالخطاب موجه إلى الأحياء الذين ما زالوا قادرين على تغيير موازينهم. إن النهاية المخيفة للسورة تريد أن تصنع نهاية مختلفة للقارئ. تصف له مصير الطريق كي لا يصل إليه، وتريه الهاوية كي يعود، وتجعله يسمع حمى النار من بعيد كي يطلب النجاة وهو في زمن الإمكان.

فالذي يسمع ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ ثم يتوب، قد تحولت الآية في حقه من خبر عن العذاب إلى سبب من أسباب الرحمة. والذي تردعه عن ظلم، أو تحمله على رد حق، أو توقظه لصلاة، أو تطهر قلبه من كبر، يكون الخوف قد أدى وظيفته النبيلة: أعاده إلى الله. فالخوف القرآني ليس غاية تستنزف الروح، وإنما قوة تدفعها إلى باب الأمان.

بَيْنَ عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ وَنَارٍ حَامِيَةٍ

يقف مصير الإنسان في السورة بين عبارتين متوازنتين في المبنى متباعدتين إلى أقصى حد في المعنى:

﴿عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ﴿نَارٍ حَامِيَةٍ﴾

هناك عيشة، وهنا نار. هناك رضا، وهنا حمى. هناك حياة اكتملت فيها أسباب الطمأنينة، وهنا مصير اجتمعت فيه أسباب العذاب. وبين الصورتين ميزان؛ لا نسب، ولا مال، ولا مظهر، ولا ادعاء، وإنما إيمان وعمل وحكم الله العادل.

إن التقابل بين راضية وحامية يلخص الصراع الذي يخوضه الإنسان في الدنيا؛ فرب شهوة حامية في القلب تنتهي بصاحبها إلى نار حامية، ورب طاعة شقت على النفس أول الأمر انتهت بها إلى عيشة راضية. من طلب الرضا العاجل في كل شيء قد يخسر الرضا الأبدي، ومن رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، وصبر على أمر الله، هياؤه الله بفضله للعيشة التي لا سخط فيها ولا شقاء.

الدنيا هي المسافة الواقعة بين هاتين النهايتين، والإنسان يكتب اتجاهه في كل يوم. ليست القرارات الصغيرة معزولة عن المصير؛ كل صدق ميل نحو العيشة الراضية، وكل ظلم غير متاب منه ميل نحو الهاوية، وكل طاعة تضع في الميزان ثقلاً، وكل إصرار على المعصية يهدد بخفته. ولا يعني ذلك أن المؤمن

يتحول إلى آلة تحصى حسناته في قلبي مرضي، بل أن يعيش واعياً بأن لأفعاله قيمة وأن رحمة الله لا تدعوه إلى الاستهانة بأمره.

الْقَارِعَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَقْرَعَنَا الْآنَ

إذا انتهى القارئ من السورة ولم يتغير تصويره للثقل والخفة، فقد سمع الألفاظ ولم يسمح للقارعة أن تبلغ قلبه. إن السؤال الذي تتركه السورة ليس: متى تقوم القيامة؟ بل: ماذا أعددت لها؟ وليس: كيف تصبح الجبال عهداً؟ بل: ما الذي يبقى لك حين تصبح كذلك؟ وليس: ما عمق الهاوية؟ بل: ما الخطوات التي ينبغي أن نتوقف عنها قبل أن تنتهي إليها؟

القارعة الحقيقية في حياة القارئ هي لحظة انكشاف: أن يدرك أن شيئاً عاش يطارده لا وزن له، وأن موقفاً كان يهرب منه هو الذي يمكن أن يثقل ميزانه، وأن مظلمة نسيها لم ينسها من ظلمه ولم تغب عن علم الله، وأن باب التوبة المفتوح اليوم قد لا يبقى مفتوحاً له غداً. حينئذ تتحول السورة من نص يقرأه إلى نور يعيد ترتيب حياته.

قرعت السورة عالم الإنسان ثلاث مرات باسمها، ثم بعثت جموعه، ونسفت جباله، ونصبت ميزانه، وقسمت مصيره، وأنزلت صاحب الميزان الخفيف إلى الهاوية، ثم كشفت في آخر كلمتين حقيقتها: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾. فما بقي للغفلة عذر، ولا للتأجيل حجة، ولا للمظاهر سلطان على من أبصر.

وما دام الإنسان حيًّا، فإنَّ بينه وبين النَّارِ باباً اسمه التَّوبة، وطريقاً اسمه الإيمان والعمل الصالح، وربما رحيماً يفرح برجوع عبده ويقبل من أناب إليه. فليست النجاة في أن ينسى المرء النار كي يطمئن، بل أن يذكرها حتى يسلك طريق الأمان؛ وليست الطمأنينة في أن يخدع نفسه بخفة الحساب، بل في أن يهيئ للميزان ما يثقله برحمة الله.

وهكذا تنتهي السورة، لكن قرعتها لا ينبغي أن تنتهي في القلب؛ تظل تلاحق كل وهم بالدوام، وكل اغترار بالقوة، وكل استخفاف بالعمل، وكل محاولة لتحويل العمر إلى هو طويل. تظل تقول للإنسان: إن العالم الذي تراه سيتغير، والناس الذين تهابهم سيتفارقون، والجبال التي تستند إليها ستنسف، ولن يبقى لك إلا ما قدمت.

الْخَاتِمَةُ الْفَكْرِيَّةُ الْجَامِعَةُ

حِينَ تُصْبِحُ الْقَارِعَةُ مِيزَانًا لِلْحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ نِهَايَةً
لِلْعَالَمِ

ليست سورة القارعة إحدى عشرة آية تصف مشهداً غيبياً بعيداً ثم تترك الإنسان يعود إلى حياته كما كان، وإنما هي بناء قرآني مكثف يعيد ترتيب تصوره للوجود كله؛ تبدأ بصوت يقرع السمع، ثم تحطم صورة الجماعة البشرية، ثم تنسف رمز الثبات المادي، ثم تنصب الميزان، ثم تقسم المصائر، ثم تنتهي إلى عيشة راضية أو نار حامية. إنها تنقل الإنسان في كلمات قليلة من ضجيج العالم إلى صمت الحساب، ومن اتساع الكون إلى دقة العمل، ومن صورة البشرية كلها إلى حقيقة الفرد الواحد.

في أول السورة نسمع الاسم قبل أن نرى المشهد: ﴿الْقَارِعَةُ﴾. وفي آخرها نرى المصير بعد أن انكشفت الموازين: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾. وبين البداية والنهاية يتجرد العالم طبقة بعد طبقة من أوهامه؛ تفقد الجموع قوتها، وتفقد الجبال صلابتها، وتفقد المظاهر قدرتها على إخفاء الحقائق، ولا يبقى للإنسان إلا الوزن الذي صنعه بإيمانه وعمله. كأن السورة تقودنا إلى نهاية كل شيء لنكتشف هناك الشيء الوحيد الذي كان ينبغي أن يكون مركز حياتنا منذ البداية: ما وزننا عند الله؟

السُّورَةُ الَّتِي تُعِيدُ تَعْرِيفَ الثَّقَلِ

عاش الإنسان طويلاً وهو يظن أن الثقل خاصية مادية واجتماعية؛ الثقل عنده هو الجبل الذي لا يتحرك، والجيش الذي لا يهزم، والدولة التي لا تقاوم، والغني الذي يملك، والمشهور الذي تملأ صورته العيون. ثم جاءت سورة القارعة لتكشف أن كل هذه الأوزان مؤقتة، وأن أثقل ما في عالم الحس يمكن أن يتحول في لحظة إلى عهن منفوش.

وفي المقابل، تكشف السورة أن الأعمال التي لا تشغل حيزاً في المكان لها وزن في عالم الحقيقة؛ الإيمان وزن، والصدق وزن، والرحمة وزن، والعدل وزن، والسجدة الخفية وزن، والكلمة التي تنتصر للمظلوم وزن، والدمعة التي لا يراها إلا الله وزن. إن العالم الأخلاقي ليس هامشاً على العالم المادي، بل هو الحقيقة التي تبقى حين ينهار العالم المادي كله.

هنا تقع الثورة القرآنية على مقاييس البشر: الجبال التي ملأت الأفق تتطاير، والنية التي اختبأت في الصدر تظهر؛ الأبنية العظيمة تهدم، والعمل الصالح الذي لم يره أحد يبقى؛ الجموع التي كانت تمنح الإنسان هيئته تتفرق، والموقف الفردي الذي اتخذته وحيداً يثقل ميزانه. لقد كنا نخطئ حين نظن أن المرئي هو الحقيقي كله، وأن الكبير في العين كبير عند الله بالضرورة، وأن الخفي قليل القيمة لأنه لم يحظ باعتراف الناس.

إن القارعة لا تهدم العالم فحسب، بل تهدم نظام تقييمه. وما القيامة إلا لحظة انكشاف الأوزان الحقيقية بعد أن حجبتها موازين الأرض المؤقتة. في الدنيا يمكن للباطل أن يبدو ضخماً

لأنه يملك أدوات الظهور، ويمكن للحق أن يبدو ضعيفاً لأنه لا يملك إلا صدقه؛ لكن القيامة تنزع من الباطل كل ما استعاره، وترد إلى الحق ثقله الذي لم يفقده قط، وإن غاب عن أعين الناس.

الْقَارِعَةُ وَتَحْرِيرُ الْإِنْسَانِ مِنْ سِحْرِ الْقُوَّةِ

حين يعرف المؤمن أن الجبال ستصير كالعهن المنفوش، يتحرر قلبه من الاستسلام لسحر القوى الأرضية. لا يعني ذلك أن يهمل الأسباب، أو يتعامل مع الواقع بسداجة، أو يقلل من خطر الظالمين، بل يعني ألا يسمح لقوتهم بأن تتحول في وعيه إلى قدر نهائي. مهما بلغت قوة البشر فإنها دون قوة الجبال، والجبال نفسها قائمة بأمر الله وستنسف بأمره.

إن الطغيان يعتمد، قبل السلاح، على قدرته على إقناع الناس بأنه باق، وأنه أثقل من أن يزحزح، وأن مقاومته عبث. فإذا دخلت القارعة في الوعي سقط وهم الخلود؛ عرف الإنسان أن الطاغية لا يملك أن يؤخر أجله، ولا أن يحمل سلطانه إلى قبره، ولا أن يمنع ميزان الله من وزن أعماله. عندئذ يصبح الإيمان بالآخرة مصدراً للشجاعة الأخلاقية؛ لأن صاحبه يرى نهاية القوة قبل أن تأتي، ويرى الميزان فوق العرش الزائل.

وفي الوقت نفسه تمنع القارعة المقاوم من أن يتحول إلى صورة أخرى ممن قاومهم؛ فهو لا يطلب انتصاراً مجرداً من القيم، ولا يبيح لنفسه الظلم باسم مواجهة الظلم، لأنه يعرف أن الميزان لا ينحاز إلى الشعارات، وأن العمل لا يثقل لمجرد أن صاحبه رفع

راية جميلة. العدالة لا تصبح باطلاً إذا مارسها الخصم، والظلم لا يصبح حقاً إذا صدر عن الحليف؛ فالله يزن الحقائق لا الاصطفافات التي احتفى بها الناس.

إن الوعي بالميزان يحرر الإنسان من عصبية الجماعة كما يحرره من خوف السلطة. فالناس يوم القارعة فراش مبثوث، ولا تبقى جماعة تحمل عن الفرد مسؤوليته. ومن باع ضميره للجمهور سيجد أن الجمهور قد تفرق، ومن خالف الحق ليظل مقبولا عند الناس سيكتشف أن قبولهم لم يضيف شيئاً إلى ميزانه. إن الجماعة نعمة حين تعين على الحق، لكنها تصبح فتنة حين يطلب منها الإنسان إعفائه من التفكير والمسؤولية.

مِنَ الْجَمَاهِيرِ إِلَى الْفَرْدِ الْمَسْئُولِ

مِنَ أَجْلِ مَسَارَاتِ السُّورَةِ انتقلنا مِنَ الْجَمْعِ إِلَى الْفَرْدِ؛ قَالَتْ أَوَّلًا: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾، ثُمَّ قَالَتْ: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾. فالقيامة تجمع البشرية كلها، لكن الحساب يعيد كل إنسان إلى مسؤوليته الخاصة.

في الدنيا يهرب الإنسان من مسؤوليته إلى ضمير الجماعة؛ يقول: هكذا يفعل الناس، وهكذا يعتقد المجتمع، وهكذا قررت القيادة، وهكذا تقتضي المصلحة. لكن كثرة المشاركين في الخطأ لا تغير حقيقة الخطأ، كما أن قلة أنصار الحق لا تنقص وزنه. عند الميزان لن يكون السؤال: كم كان عدد الذين فعلوا معك؟ بل: ماذا فعلت أنت بما عرفت وما استطعت؟

إن هذه الفردية الأخلاقية لا تعني الانعزال عن المجتمع، بل تعني أن يشارك الإنسان فيه بضمير لا يذوب، وأن يحب جماعته دون أن يعبدها، وأن ينصرها في الحق ولا ينصرها على الحق، وأن يبقى قادراً على قول «لا» حين تتحول الطاعة إلى خيانة. الإنسان المسؤول ليس منفصلاً عن الناس، لكنه لا يجعل كثرتهم حجاباً بينه وبين الله.

وما أوج الحضارة الإنسانية إلى هذا الفرد الذي يملك مركزاً أخلاقياً؛ فالكوارث الكبرى لا يصنعها الأشرار وحدهم، بل يصنعها كذلك أولئك الذين سلموا ضمائرهم للجماعة، وأقنعوا أنفسهم بأن المسؤولية موزعة حتى لا يتحملها أحد. أما سورة القارعة فتجمع الناس في المشهد ثم تفردهم عند الميزان، لتقول إن المسؤولية قد تتوزع في ظاهر الفعل، لكنها لا تضيع عند الله.

الْمِيزَانُ وَسُقُوطُ ثَقَافَةِ الصُّورَةِ

تعيش النفس البشرية مفتونة بالصورة؛ تحب أن تبدو صالحة أكثر من حبها أن تكون صالحة، وأن تعرف بالشجاعة أكثر من استعدادها لدفع ثمنها، وأن يقال عنها كريمة أكثر من عنايتها بحقيقة الكرم. وكلما اتسعت وسائل العرض ازدادت المسافة أحياناً بين ما يراه الناس وما يعلمه الله.

لكن الميزان لا يزن الصورة؛ يزن الحقيقة التي تقف خلفها. لا يزن الكلمات ببلاغتها وحدها، بل بما صدق منها. ولا يزن العطاء بحجمه وحده، بل بما خلص فيه لله. ولا يزن المواقف

بصوتها العالي، بل بما حملته من عدل وشجاعة. ولا يزن الصمت بهدوئه، فقد يكون حكمةً وقد يكون خيانة، وإنما يزن ما علمه الله من دافعه وموضعه وأثره.

إن أخطر الخسارات أن ينفق المرء حياته في بناء نسخة منه داخل عيون الآخرين، ثم يهمل الإنسان الحقيقي الذي سيقف بين يدي الله. الصورة تحتاج دائماً إلى جمهور، أما الحقيقة فتستطيع أن تنمو في الخفاء؛ الصورة تخاف انصراف الأنظار، أما الحقيقة فيكفيها نظر الله. وحين تأتي القارعة ينصرف الجمهور كله إلى نفسه، وتبقى الروح التي صنعها صاحبها بعيداً عن التصفيق.

ولذلك فإن الإخلاص ليس فضيلةً تعبديةً جزئية، بل تحرير للإنسان من استعباد النظرات؛ أن يعمل الخير لأنه خير يحبه الله، لا لأنه مادة لصناعة اسمه. وحين يتحرر من انتظار الاعتراف، يصبح قادراً على أداء أعمال عظيمة لا يعلم بها أحد، وعلى الثبات في مواقف لا تمنحه ربحاً عاجلاً، وعلى الاحتفاظ بصدقه حين تكون الخيانة أكثر شعبية.

العمر مشروع وزن

تمنح سورة القارعة كل لحظة في الحياة معنى جديداً؛ فالوقت ليس مجرد مادة تستهلك ثم تفتنى، بل فرصة لبناء الوزن. كل يوم يمكن أن يضيف إلى ميزان الإنسان أو يتركه أخف، وكل علاقة يمكن أن تتحول إلى عدل ورحمة أو إلى ظلم وأذى، وكل نعمة يمكن أن تصير زاداً إلى الآخرة أو قيداً يثقل صاحبه بالأوزار.

المشكلة ليست أن الإنسان لا يفعل شيئاً، بل قد يفعل أشياء كثيرة لا وزن لها؛ يتعب، ويجري، ويجمع، وينافس، ويملاً أيامه، لكنه لا يسأل عن الجهة التي تمضي إليها هذه الحركة. وسورة القارعة لا تدعوه إلى ترك العمل الدنيوي، بل إلى إعادة توجيهه؛ يستطيع أن يجعل تجارته أمانة، وعمله نفعاً، وسلطانه عدلاً، وماله عطاءً، وأمه بصيرة، وكلمته دفاعاً عن الحق. ليست الآخرة خصماً للعمران، وإنما هي الميزان الذي يمنع العمران من أن يتحول إلى وثن أو أداة للفساد.

إن المؤمن لا ينسحب من العالم لأنه سينتهي، بل يعمره لأنه مسؤول عما يفعل فيه. زوال الدنيا لا يجعل العمل فيها عبثاً؛ بل يجعل كل عمل صالح فيها أغلى، لأن زمنه محدود وأثره الأخروي باق. وكما أن قرب الغروب لا يجعل الضوء عديم القيمة، فإن قصر الدنيا لا يجعل السعي فيها بلا معنى؛ إنما يحركه من وهم الدوام، ويمنحه جدية الأمانة.

ومن هنا تصبح المهنة عبادةً إذا صلحت النية واستقام العمل، ويصبح الفكر عبادةً إذا طلب الحقيقة وخدم الإنسان، وتصبح الكلمة وزناً إذا دافعت عن مظلوم أو هدت حائراً أو كشفت باطلاً، ويصبح الصبر بناءً أخوياً حين يحتسبه صاحبه عند الله. ليست الموازين مخزناً لشعائر منفصلة عن الحياة، بل تجتمع فيها حياة الإنسان كلها بعد أن تتحدد قيمتها بالإيمان والحق والإخلاص.

الْحَضَارَةُ الَّتِي قَدْ تَكُونُ خَفِيفَةً

كما يمكن للفرد أن يمتلئ بالمظاهر ويفرغ من الوزن، يمكن للحضارة أن ترتفع أبنيتها وتخف قيمتها. قد تبلغ من القوة التقنية مبلغاً هائلاً، لكنها تعجز عن أن تمنح الإنسان معنى، وقد تزداد قدرتها على السيطرة على الطبيعة بينما تقل قدرتها على ضبط الشهوة، وقد تعرف كيف تصل إلى البعيد ولا تعرف لماذا تسير ولا إلى أين تنتهي.

لا يقاس وزن الحضارات بحجم ما بنت فقط، بل بنوع الإنسان الذي صنعته، وبمقدار العدل الذي أقامته، والرحمة التي نشرتها، والكرامة التي حفظتها، والحقيقة التي خضعت لها. فالمصنع العظيم الذي يقوم على استعباد الإنسان خفيف في ميزان الأخلاق، والمؤسسة اللامعة التي تخفي الظلم تحت لعتها البراقة لا يمنحها بريقها وزناً، والعلم الذي يزيد قدرة الشر دون أن ينمي ضمير صاحبه قد يجعل سقوطه أشد.

وسورة القارعة، وهي تحول الجبال إلى عهنٍ منفوش، تقول للحضارة: لا تغتري بكثتك؛ فالجحم ليس ضماناً للبقاء، والقدرة ليست دليلاً على الصواب، والامتداد في الزمن لا يمنح الباطل شرعية. إن الحضارة الثقيلة حقاً هي التي تحمل رسالة أخلاقية، وتصور الإنسان من التحول إلى أداة، وتجعل قوتها خادمة للعدل لا بديلاً منه.

وهذا المعنى يخاطب الأمة المسلمة كذلك؛ فلا يكفي أن تمتلك تاريخاً عظيماً أو ترفع شعارات صحيحة إذا خفت موازين واقعها من العدل والأمانة والعلم والعمل. الانتماء إلى الحق مسؤولية

لإقامته، لا ورقة إعفاء من محاسبة النفس. وما لم يتحول الوحي إلى إنسان صادق، ومؤسسة عادلة، وعلم نافع، ورحمة ممتدة، فقد تظل الكلمات ثقيلة في ذاتها بينما يحملها واقع خفيف.

الْخَوْفُ الَّذِي يُنْقِذُ وَلَا يُحْطِمُ

تنتهي السورة بالنار الحامية، لكنها لا تريد أن تحول الإنسان إلى روح مشلولة بالرعب؛ فالخوف القرآني ليس حفرة يسقط فيها القلب، بل جرس يوقظه قبل السقوط. إنه خوف ينبه الإرادة، ويفتح باب التوبة، ويمنح القرار الأخلاقي جديته. أما الخوف الذي يقود إلى اليأس والقنوط فليس هو المقصود؛ لأن اليأس نفسه صورة من الجهل بسعة رحمة الله.

الخوف الصحيح يرد المظالم، ويقطع طريق المعصية، ويحرر من التسويف، ويجعل الإنسان أصدق في خلواته. والرجاء الصحيح يدفع إلى العمل، ويحسن الظن بالله، ويمنع الماضي من أن يتحول إلى سجن دائم. وبين الخوف والرجاء تسير الروح إلى الله: تخاف عدله فلا تصر، وترجو رحمته فلا تقنط.

ما دامت القارعة خبراً نقرؤه، فإن زمن العمل باق؛ فإذا صارت واقعاً نراه انتهى زمن الاختيار. وهذه هي المسافة التي ينبغي أن يدرك الإنسان قيمتها: نحن الآن قبل الميزان، نستطيع أن نزيد وننقص، وأن نتوب ونصلح، وأن نرد الحقوق، وأن نغير الوجهة. وما أعظم الفرق بين من يسمع الإنذار فيعود، ومن لا يستيقظ إلا حين لا ينفع الاستيقاظ.

قد يكون في صحيفَةِ المرءِ ماضٍ يثقله بالأوزار، لكن الله لم يجعل الماضي ربا على المستقبل؛ فتح باب التوبة، وجعل الندم طريقا إلى التطهر، وأبقى للإنسان قدرة على أن يبدأ. ليست العبرة ألا يسقط أبدا، فالبشر يخطئون، وإنما ألا يتخذ من السقوط بيتا، وألا يجعل الخطأ هوية يدافع عنها، وألا يؤجل الرجوع حتى تأتي القارعة.

الْعَيْشَةُ الرَّاضِيَةُ: جَوَابُ تَعَبِ الْمُؤْمِنِ

في قلب هذه السورة المملوءة بالاضطراب تفتتح واحة قصيرة من الطمأنينة: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. كأن كل الفزع الكوني يقف بعيدا عن صاحب الميزان الثقيل، فلا تنتهي رحلته إلى مجرد النجاة، بل إلى حياة رضي عنها ورضيت عنه. إنها إجابة الله عن كل لحظة صبر لم يفهمها الناس، وكل شهوة تركها المؤمن ابتغاء وجه ربه، وكل موقف حق دفع ثمنه، وكل ألم احتمله دون أن يبيع ضميره.

في الدنيا قد يعيش المؤمن عيشة لا ترضيه في بعض وجوهها؛ يضيق به الرزق، ويؤلمه الفقد، ويخذله الناس، ويرى الباطل غالبا في بعض الجولات. لكن الرضا النهائي ليس للدنيا؛ إنها دار اختبار لا تكتمل فيها المقابلة بين العمل والجزاء. ولو نال كل إنسان جزاءه كاملا هنا لما بقي لمعني الآخرة موضعه. ولذلك تبقى مظالم لم تجبر، وتضحيات لم تكافأ، وأحزان لم تجد عزاءها الكامل، حتى يأتي اليوم الذي توضع فيه الأشياء في نصابها الأخير.

والعيشة الراضية ليست تعويضاً مادياً فحسب، بل كشف للمعنى؛ يرى المؤمن يومئذ أن شيئاً من صبره لم يضع، وأن الحرمان الذي آلمه كان يحفظ له عطاءً أكبر، وأن الطريق الشاق لم يكن التفافاً بلا غاية، بل كان الطريق إلى الرضا. هناك يفهم الإنسان سيرته كلها في ضوء رحمة الله، وتلتئم الأجزاء التي بدت في الدنيا متناثرة.

السُّؤالُ الَّذِي يَبْقَى بَعْدَ السُّورَةِ

حين تطوى صفحات هذا الكتاب، لا ينبغي أن يكون السؤال: هل أعجبنا التصوير؟ بل: ماذا فعلت السورة بأوزاننا؟ هل جعلتنا أقل اعتراضاً بما يزول؟ هل ردت كلمة إلى الفم قبل أن تظلم؟ هل أيقظت توبة مؤجلة؟ هل جعلتنا نعيد النظر في خصومة تستنزف العمر ولا تثقل الميزان؟ هل حررتنا من انخوف من بشر سيصبحون معنا كالفراش المبثوث؟

القارعة ليست نصاً يصف المستقبل ثم يغادره، بل هي مستقبل يدخل إلى الحاضر ليصححه. إنها تنقل الميزان من ساحة القيامة إلى داخل الضمير؛ فيصبح للإنسان ميزان يقيس به اختياراته قبل أن توزن عليه. كلها عرضت له منفعة سأل: ما وزننا عند الله؟ وكلها دعاه الهوى إلى تنازل سأل: ماذا يبقى من هذا حين تتطاير الجبال؟ وكلها أغرته الشهرة سأل: هل أثقل في عيون الناس وأخف في ميزان الله؟

هذا لا يجعل حياته قائمة، بل يمنحها وضوحاً؛ فالعذاب الأكبر في الحياة ليس أن يعرف الإنسان أن أمامه حساباً، بل أن يعيش بلا معنى ولا معيار. أما حين يعرف غايته، فإنه يستطيع أن يرتب رغباته، وأن يرفض ما يهدمه، وأن يصبر على ما يبنيه. إن الميزان لا يضيق الحياة، بل ينقذها من التبعض.

الْقَارِعَةُ الْأَخِيرَةُ

يا أيها الإنسان الذي تمشي فوق أرض تبدو ساكنة، وترفع بصرك إلى جبال تبدو خالدة، وتعيش بين جموع تبدو قادرة على أن تمنحك الأمن: سيأتي يوم يزول فيه هذا الترتيب كله. ستتحول الجموع إلى فراش مبثوث، والجبال إلى عهن منفوش، ولن يبقى لك من الدنيا إلا ما حولته إلى إيمان وعمل صالح.

فلا تجعل ما سيتطاير أثقل في قلبك مما سيبقى، ولا تنفق أبديتك من أجل لحظة، ولا تبع ميزانك لتشتري صورة في عين بشر فانين. وإذا أخطأت فارجع، وإذا ظلمت فرد الحق، وإذا خف قلبك فاملأه بذكر الله، وإذا ضاع منك الطريق فافتح القرآن؛ فإن الذي أخبرك بالقارعة لم يرد أن يفاجئك بها، وإنما أراد أن يوقظك قبلها.

اجعل لكل يوم عملاً خفياً لا يعلمه إلا الله، ولكل نعمة نصيباً من الشكر، ولكل قدرة حظاً من الرحمة، ولكل كلمة ميزاناً قبل خروجها، ولكل خصومة حداً لا تتجاوزه إلى الظلم. ولا تحتقر خيراً لقلّة صورته؛ فقد تثقل موازين بأشياء مرت على الناس خفيفة وهي عند الله عظيمة.

وحين تخيفك النهاية، تَذَكِّرْ أَنْ الَّذِي قَالَ: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ هو الذي قال قبلها: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾؛ فقد فتح طريق النجاة كما حذر من طريق الهلاك، وجعل الاختيار الآن ممكناً، والتوبة ممكنة، والميزان قابلاً للثقل. وبين الخوف والرجاء امضِ إلى الله بقلب صادق، فإن العمر أقصر من أن يبدد، والعمل أخطر من أن يترك بلا ميزان، والآخرة أقرب من أن تعامل كفكرة بعيدة.

ستأتي القارعة يوماً، وستنتهي كل الأصوات التي ملأت العالم، لكن صوت عملك سيبقى في ميزانك. وستزول الجبال التي رأيتها، لكن سجدة صادقة قد تبقى. وسيتفرق الناس الذين طلبت رضاهم، لكن رضا الله لا يزول. وسيخف كل ما ظننته ثقيلاً، ولن يثقل إلا ما كان لله.

فاللهم ثقل موازيننا بالإيمان والصدق والعمل الصالح، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، وأيقظ قلوبنا بقرآنك قبل أن توقظ العالم قارعتك، وأمنّا يوم الفزع الأكبر، وأدخلنا برحمتك في عيشة راضية، وقنا الهاوية والنار الحامية.

تم بحمد الله